المنتقى من كتاب: إحياء علوم الدين للإمام الغزالي

جمع
فهد بن عبدالعزيز بن عبدالله الشويرخ

جميع حقوق النشر والطبع لكل مسلم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين, والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين, نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين...أما بعد: فإن مما يجعل بعض الأشياء تشتبه على بعض الناس, اشتمالها على حق وباطل, وخير وشر, ونفع وضر, وبعض الكتب المصنفة قديماً وحديثاً تشتمل على ذلك, لذا ينبغي التنبه لها, والحذر منها, وعدم الاقتصار على رؤية الأشياء الحسنة فيها, وإغفال ما فيها من مفاسد وأضرار, ومن تلك الكتب, كتاب " إحياء علوم الدين" للإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥ هـ) رحمه الله وعفا عنه, قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: كلامه في الإحياء غالبه جيد...وفيه مواد فاسدة مادة فلسفية, ومادة كلامية, ومادة من ترهات الصوفية, ومادة من الأحاديث الموضوعة...وما في الإحياء من الكلام في المهلكات, مثل الكلام على الكبر والعجب والرياء والحسد, فغالبه منقول من كلام الحارث المحاسبي في الرعاية, ومنه ما هو مقبول, ومنه ما هو مردود, ومنه ما هو متنازع فيه, والإحياء فيه فوائد كثيرة, لكن فيه مواد فاسدة, من كلام الفلاسفة ,تتعلق بالتوحيد والنبوة والمعاد, فإذا ذكر معارف الصوفية كان بمنزلة من أخذ عدواً للمسلمين ألبسه ثياب المسلمين...وفيه أحاديث وآثار ضعيفة, بل موضوعة كثيرة, وفيه أشياء من أغاليط الصوفية وترهاتهم, وفيه مع ذلك من كلام المشايخ الصوفية العارفين المستقيمين في أعمال القلوب, الموافق للكتاب والسنة, ومن غير ذلك من العبادات والأدب ما هو موافق للكتاب والسنة ما هو أكثر مما يُردُّ منه, فلهذا اختلف فيه اجتهاد الناس وتنازعوا فيه.

وقال العلامة عبدالعزيز بن عبدالله ابن باز رحمه الله: كتاب فيه شر كثير وإن كان من أجل كتبه كما قال الشارح لما فيه من بعض الفوائد ولكنه فيه شر كثير...من البدع الكثيرة وتأييد مذهب الأشاعرة في نفي الصفات وتأويلها, وإذا تأمله طالب العلم وجد شراً كثيراً, ووجد فيه فوائد جمة, فيه فوائد عن أحوال القلوب, وعن كثير من الأعمال, ولكن مشحون أيضاً بأشياء تضر طالب العلم.

وقال العلامة صالح بن فوزان الفوزان : فيه طوام وفيه بلايا, وإن كان فيه شيء من الخير والفوائد, لكن فيه من المهلكات, والسموم الشيء الكثير, وهو كتاب مختلط, شره أكثر من نفعه.

ولوجود هذه الأضرار والمفاسد في كتاب "إحياء علوم الدين" فقد حذر أهل العلم منه, وصنف بعضهم في ذلك, منهم: الإمام المازري قال شيخ الإسلام ابن تيمية: رد عليه المازري في كتاب أفرده. وقال الحافظ الذهبي: رأيت كتاب " الكشف والإنباء عن كتاب الإحياء " للمازري. ومنهم: الإمام ابن الجوزي قال: جمعتُ أغلاط الكتاب وسميته " إعلام الأحياء بأغلاط الإحياء " ,وأشرت إلى بعض ذلك في كتابي " تلبيس إبليس ". ومنهم: العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ, في كتابه " القول المبين في التحذير من كتاب إحياء علوم الدين "

وحتى يستفيد الناس مما في الكتاب من فوائد, ويسلموا مما فيه من مفاسد, فقد قام بعض العلماء باختصاره, كالإمام ابن الجوزي, والشيخ أحمد المقدسي الذي اختصر كتاب ابن الجوزي, وكالشيخ القاسمي, رحمهم الله جميعاً.

وقد قمتُ بانتقاء بعض ما يوجد في الكتاب من مواد نافعة, أسال الله الكريم أن ينفع بها الجميع, وأن يتجاوز عني فيما قصّرت فيه.

الربع الأول: ربع العبادات

كتاب العلم

فضيلة العلم والتعلم والتعليم:

شواهدها من القرآن قوله عز وجل: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات)[المجادلة:١١]وقال عز وجل(هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [الزمر:٩] وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر:٢٨]

وأما الأخبار: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين) وقال صلى الله عليه وسلم: (العلماء ورثة الأنبياء)

وقال صلى الله عليه وسلم: (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.)

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به....الحديث)

وقال عليه الصلاة والسلام: (الدال على الخير كفاعله)

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل حكمة, فهو يقضي بها, ويعلمها الناس , ورجل آتاه الله مالاً, فسلطه على هلكته في الخير)

وأما الآثار: فقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلم خير من المال, العلم يحرسك وأنت تحرس المال. والعلم حاكم والمال محكوم عليه, والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو بالإنفاق.

وقال العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد, وإذا مات العالم ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها إلا خلف منه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ذللت طالباً فعززت مطلوباً.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها.

وقال ابن المبارك: عجبت لمن لم يطب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟

وقال فتح الموصلي: أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء ثلاثة أيام يموت؟ قالوا: بلى. قال: كذلك القلب إذا منع الحكمة عنه والعلم ثلاثة أيام يموت.

ولقد صدق فإن غذاء القلب: العلم والحكمة وبهما حياته, كما أن غذاء الجسد الطعام, ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به, إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه.

وقيل لبعض الحكماء: أي الأشياء تقتني ؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك. يعني: العلم.

وقال بعضهم: من اتخذ الحكمة لجاماً اتخذه الناس إماماً. ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال الشافعي: من شرف العلم أن كل من نُسب إليه ولو في شيء حقير فرح, ومن رفع عنه حزن.

وقال الزبير بن أبي بكر: كتب إلي أبي بالعراق: عليك بالعلم فإنك إن افتقرت كان لك مالاً, وإن استغنيت كان لك جمالاً.

وقال لقمان لابنه: يا بني, جالس العلماء وزاحمهم بركبتك, فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء.

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كن عالماً, أو متعالماً, أو مستمعاً, ولا تكن الرابع فتهلك.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من النافلة.

وقيل أول العلم: الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره.

وقال يحيى بن معاذ: العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم.

قيل: كيف ذلك. ؟

قال: لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة.

وقال بعضهم: العلماء سرج الأزمنة, كل واحد مصباح زمانه, يستضيء به أهل عصره.

وسئل ابن المبارك: من الناس ؟ فقال: العلماء.

فلم يجعل غير العالم من الناس, لأن الخاصية التي يتميز بها الناس عن سائر البهائم هو العلم, فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله, وليس ذلك بقوة شخصه, فإن الجمل أقوى منه, ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه, ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه, ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه, ولا ليجامع فإن أخسّ العصافير أقوى على السفاد منه.

إن أدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا, وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برئ بها من النفاق والرياء.

والعلم حياة القلوب من العمى, ونور الأبصار من الظلم, وقوة الأبدان من الضعف, يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى,...به يعرف الحلال والحرام, وهو إمام والعمل تابعه, يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء,

نسأل الله حسن التوفيق.

آداب المتعلم:

١–طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف والصفات الرديئة مثل: الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخواتها.

٢– أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا.

٣– أن لا يتكبر على العلم ولا يتأمر على معلم.

٤– أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدئ بالأهم.

٥– أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله, فإن العلوم بعضها طريق إلى بعض, والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج.

٦– أن لا يقصد الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران

العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة:

من المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا, وعلماء الآخرة, ونعنى بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا, والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: إني لأرحم ثلاثة: عزيز قوم ذل, وغني قوم افتقر, وعالماً تلعب به الدنيا.

وقال الحسن عقوبة العلماء موت القلب, وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وعلماء الآخرة لهم علامات:

فمنها: أن لا يخالف فعله قوله, بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به. قال الله تعالى: (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) [البقرة:٤٤]

ومنها: أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها.

ومنها: أن لا يطلب الدنيا بعلمه.

ومنها: أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبته مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً. بل ينبغي أن يحترز من مخالطتهم وإن جاءوا إليه, فإن الدنيا حلوة خضرة وزمانها بأيدي السلاطين.

ومنها: لا يكون مسارعاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترزاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً

ومنها: أن يكون غير مائل إلى الترفه والتنعم. والتجمل بل يؤثر الاقتصاد

ومنها: أن يظهر أثر الخشية على هيئته وسيرته وحركته وسكونه ونطقه وسكوته, فعلماء الآخرة يعرفون بسيماهم في السكينة والتواضع.

ومنها: أن يكون شديد التوقي من محدثات الأمور, وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم.

وظائف المعلم:

١-الشفقة على المتعلمين, وأن يجريهم مجرى بنيه...بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة, وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا.

٢- لا يطلب على إفادة العلم أجراً, ولا يقصد به جزاء ولا شكراً, بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه.

٣- أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً...فينبه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة.

٤- أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح. وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ.

٥- أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفره.

كتاب أسرار الطهارة

الحمد لله الذي تلطف بعباده فتعبدهم بالنظافة, قال الله تعالى: (فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين) [التوبة:١٠٨] وقال تعالى: (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) [المائدة:٦]

يبعد أن يكون المراد بقوله عليه الصلاة والسلام: (الطهور نصف الإيمان) عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاضة الماء وإلقائه, وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار هيهات هيهات.

مراتب الطهارة:

المرتبة الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات.

المرتبة الثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام.

المرتبة الثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل الممقوتة.

فضيلة الوضوء:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيهما بشي من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)

وقال عليه الصلاة والسلام: (ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات؟ إسباغ الوضوء على المكاره, ونقل الأقدام إلى المساجد, وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاث مرات)

وقال عمر رضي الله عنه: إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان.

وقال مجاهد: من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكراً مستغفراً فليفعل, فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

كتاب أسرار الصلاة

الصلاة عماد الدين, ورأس القربات, وغرة الطاعات.

فضيلة المكتوبة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خمس صلوات كتبهن الله على العباد, فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافاً بحقهن, كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة, ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد, إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة)

وقال عليه الصلاة والسلام: (مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بباب أحدكم يقتحم فيه كل يوم خمس مرات, فما ترون ذلك يبقى من درنه, قالوا: لا شيء, قال: فإن الصلوات الحمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن.)

وسئل صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل ؟ قال: الصلاة على وقتها.

فضيلة الجماعة:

قال صلى الله عليه وسلم: (صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة)

وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم فقد ناساً في بعض الصلوات فقال: (لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم.)

قال سعيد بن المسيب: ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد.

فضيلة الخشوع وحضور القلب:

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى: (وأقم الصلاة لذكري) [طه:١٤]

وظاهر الأمر الوجوب, والغفلة تضاد الذكر, فمن عفل في جميع صلاته فكيف يكون مقيماً للصلاة لذكره.

كتاب أسرار الزكاة

الله تعالى جعل الزكاة إحدى مباني الإسلام....وشدد الوعيد على المقصرين فيها, فقال: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) [التوبة:٣٤] ومعنى الإنفاق في سبيل الله إخراج حق الزكاة.

آداب المزكي:

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف:

الوظيفة الأولى: التطهير من صفة البخل, فإنه من المهلكات, قال تعالى: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر:٩]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاث مهلكات: شح مطاع, وهوى متبع, وإعجاب المرء بنفسه)

الوظيفة الثانية: التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء, ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوق عن الخيرات

الوظيفة الثالثة: الإسرار, فإن في ذلك أبعد عن الرياء والسمعة. قال تعالى: (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) [البقرة:٢٧١]

الوظيفة الرابعة: أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء, قال الله عز وجل: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي) [البقرة:٢٧١]

الوظيفة الخامسة: أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى, قال الله تعالى: (لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) [البقرة:٢٦٤]

الوظيفة السادسة: شكر النعمة, فإن لله عز وجل على عبده نعمة في نفسه, وفي ماله.

الوظيفة السادسة: أن يستصغر العطية, فإنه إن استعظمها أُعجب بها, والعجب من المهلكات, وهو محبط للأعمال, قال تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) [التوبة:٢٥]

ويُقال إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل, والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل.

وقيل: لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور: تصغيره, وتعجليه, وستره.

الوظيفة السابعة: أن ينتقى من ماله...أطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيب

وظائف القابض:

الأولى: أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكفي همه,...فليأخذ ما يأخذه...رزقاً له وعوناً على الطاعة,...فإن استعان به معصية الله كان كافراً لأنعم الله عزوجل, مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه.

الثانية: أن يشكر المعطي ويدعو له, ويثني عليه.

الثالثة: أن ينظر فيما يأخذه, فإن لم يكن من حل تورع عنه.(ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب) [الطلاق:٢_٣] ولن يعدم المتورع عن الحرام فتوحاً من الحلال.

الرابعة: أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه, فلا يأخذ إلا المقدار المباح, ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق.

فضل صدقة التطوع:

قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (اتقوا النار ولو بشق تمرة, فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة)

وقال صلى الله عليه وسلم: (ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب, ولا يقبل الله إلا طيباً إلا كان الله أخذها بيمينه فيربيها كما يربي أحدكم فصيله حتى تبلغ التمرة مثل أحد)

قال لقمان لابنه: إذا أخطأت خطيئة فأعط الصدقة.

قال عبدالعزيز بن أبي رواد: كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة: كتمان المرض, وكتمان الصدقة, وكتمان المصيبة.

إخفاء الصدقة:

الإخفاء فيه معان:

الأول: أنه أبقى للستر على الآخذ, فإن أخذه ظاهراً, هتك لستر المروءة, وكشف عن الحاجة, وخروج عن هيئة التعفف والتصون المحبوب, الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

الثاني: أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم, فإنهم ربما يحسدون, أو ينكرون عليه أخذه, ويظنون أنه آخذ مع الاستغناء, أو ينسبونه إلى أخذ زيادة, والحسد وسوء الظن والغيبة من كبائر الذنوب, وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى.

الثالث: إعانة المعطي على إسرار العمل, فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر, والإعانة على إتمام المعروف معروف.

الرابع: أن في إظهاره الأخذ ذلاً وامتهاناً, وليس للمؤمن أن يذل نفسه.

كتاب أسرار الصوم

الحمد لله الذي أعظم على عباده المنة, بما دفع عنهم كيد الشيطان,...إذ جعل الصوم حصناً لأوليائه وجُنّة, وفتح لهم به أبواب الجنة. قال الله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر:١٠] والصوم نصف الصبر.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك, يقول الله عز وجل: إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي, فالصوم لي وأنا أجزي به.) وقال صلى الله عليه وسلم: (للجنة باب يقان له الريان, لا يدخله إلا الصائمون.) وقال عليه الصلاة والسلام: (للصائم فرحتان, فرحة عند إفطاره, وفرحة عند لقاء ربه.)

صوم الصالحين:

صوم الصالحين...تمامه بستة أمور:

الأول: غض البصر...إلى كل ما يذم ويكره, وإلى كل ما يشغل القلب عن ذكر الله.

الثاني: حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والخصومة

الثالث: كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه

الرابع: كف الجوارح عن الآثام من اليد والرجل, وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام.

الخامس: أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه.

السادس: أن يكون قلبه معلقاً بين الخوف والرجاء, إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين, أو يرد عليه فهو من الممقوتين.

كتاب أسرار الحج

آداب الحاج:

الأول: أن تكون النفقة حلالاً, وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم, حتى يكون القلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى, وتعظيم شعائره.

الثاني: التوسع في الزاد, وطيب النفس بالبذل, والإنفاق, من غير تقتير, ولا إسراف, وأعنى بالإسراف: التنعم بأطيب الأطعمة, والترفه بشرب أنواعها, على عادة المترفين. فأما كثرة البذل فلا سرف فيه, إذ لا خير في السرف, ولا سرف في الخير, كما قيل.

الثالث: ترك الرفث والفسوق والجدال. والرفث: اسم جامع لكل لغو وخنى, وفحش في الكلام, ويدخل فيه مغازلة النساء ومداعبتهن, والتحدث بشأن الجماع ومقدماته. والفسق: اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل.

والجدال: هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن,...فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه, وعلى غيره, بل يلين جناحه, ويخض جناحه, للسائرين إلى بيت الله عز وجل, ويلزم حسن الخلق, وليس حسن الخلق كف الأذى, بل احتمال الأذى.

الرابع: أن يكون غير مستكثر من الزينة, ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر.

الخامس: أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي....فكل خسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل.

من علامة قبول الحج:

يقال إن من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصي, وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين, وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة.

الاعتبار بأعمال الحج:

لا تغفل عن أمور الآخرة في شيء مما تراه, فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة.

وليعظم في نفسه قدر البيت, وقدر رب البيت, وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه, خطير أمره....وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه, بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة, وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص.

فإن كنت راغباً في قبول زيارتك, فنفذ أوامره, وردّ المظالم, وتب إليه أولاً من جميع المعاصي,....وتذكر عند....السفر للحج....السفر للآخرة فإن ذلك بين يديه على القرب,...فلا ينبغي أن تغفل عن ذلك السفر عند الاستعداد لهذا السفر.

الزاد:

ليطلبه من موضع حلال...وليتذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر, وأن زاده التقوى وأن ما عداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت, ويخونه فلا يبقى معه...فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت, بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير.

الراحلة:

ليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه المشقة, وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة, وهي الجنازة التي يحمل عليها.

ثوبي الإحرام:

ليتذكر عنده الكفن, ولفه فيه.

الخروج من البلد:

ليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن....في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا, فليحضر في قلبه ماذا يريد, وأين يتجه, وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له, الذين نودوا فأجابوا وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إدلالاً بأعماله.

وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق, لقي الله عز وجل وافداً إليه, إذ قال جل جلاله: (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله) [النساء:١٠٠]

الإحرام والتلبية من الميقات:

ليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل, فارج أن تكون مقبولاً, واخش أن يقال لك لا لبيك, ولا سعديك, فكن بين الرجاء والخوف متردداً, وعن حولك وقوتك متبرئاً, وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلاً.

الطواف بالبيت:

أحضر في قلبك فيه التعظيم, والخوف, والرجاء, والمحبة.

الوقوف بعرفة:

اذكر بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات عرصات القيامة, واجتماع الأمم مع الأنبياء, واقتفاء كل أمة بنبيها....وإذ تذكرتك ذلك فالزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل.

رمي الجمار:

اقصد به الانقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية.

كتاب آداب تلاوة القرآن

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتابه المنزل, (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيمٍ حميدٍ) [فصلت:٤٢] وقال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) [الحجر:٩] ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته, والمواظبة على دراسته.

آداب التلاوة:

الأول: التعظيم للمتكلم, فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم, ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر.

الثاني: حضور القلب, وترك حديث النفس, وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية.

الثالث: التدبر, فالمقصود من القراءة التدبر,...وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد.

الرابع: التخلي عن موانع الفهم, فإن أكثر الناس منعوا من تفهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم...منها: أن يكون مصراً على ذنب, أو متصفاً بكبر, أو مبتلى في الجملة بهوى الدنيا مطاع, فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه....وهو أعظم حجاب للقلب, وبه حجب الأكثرون.

الخامس: أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن, فإن سمع أمراً أو نهياً, قدّر أنه المنهي والمأمور, وإن سمع وعداً أو وعيداً فكمثل ذلك.

السادس: أن يتأثر قلبه. قال وهيب بن الورد: نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ, فلم نجد شيئاً أرق للقلوب...من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره.

ليس بعد تلاوة كتاب الله عز وجل عبادة تؤدى باللسان أفضل من ذكر الله تعالى, ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إلى الله تعالى.

آداب الدعاء:

الأول: أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة, كيوم عرفة من السنة, ورمضان من الأشهر, ويوم الجمعة من الأسبوع, ووقت السحر من ساعات الليل, قال تعالى: (وبالأسحار هم يستغفرون) [الذاريات:١٨] وقال صلى الله عليه وسلم: (ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير, فيقول عز وجل: من يدعوني فأستجيب له, من يسألني فأعطيه, من يستغفرني فأغفر له)

الثاني: أن يغتنم الأحوال الشريفة. قال صلى الله عليه وسلم: (الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد) وقال عليه الصلاة والسلام: (الصائم لا ترد دعوته)

وقال صلى الله عليه وسلم: (أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء)

قال أبو هريرة رضي الله عنه: إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله, وعند نزول الغيث وعند إقامة الصلوات المكتوبة, فاغتنموا الدعاء فيها

الثالث: أن يدعو مستقبل القبلة, ويرفع يديه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن ربكم حيي كريم, يستحي من عبيده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردها صفراً.)

الرابع: خفض الصوت بين المخافتة والجهر, قال عز وجل: (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها) [الإسراء:١١٠] أي: بدعائك, وقد أثنى الله عز وجل على نبيه زكريا عليه السلام, حيث قال: (إذ نادى ربه نداءً خفياً) [مريم:٣]

الخامس: أن لا يتكلف السجع في الدعاء, فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع, والتكلف لا يناسبه. قال بعضهم: ادع بلسان الذلة والافتقار, لا بلسان الفصاحة والانطلاق.

السادس: التضرع والخشوع, والرغبة والرهبة, قال الله تعالى: (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً) [الأنبياء:٩٠] وقال عز وجل: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفيةً) [الأعراف:٥٥]

السابع: أن يجزم بالدعاء, ويوقن بالإجابة, ويصدق رجاءه فيه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت, اللهم ارحمني إن شئت, ليعزم المسألة, فإنه لا مكره له.)

الثامن: أن يلح في الدعاء, ويكرر ثلاثاً. قال ابن مسعود رضي الله عنه: كان عليه السلام إذا دعا, دعا ثلاثاً, وإذا سأل, سأل ثلاثاً.) وينبغي أن لا يستبطئ الإجابة لقوله صلى الله عليه وسلم: (يستجاب لأحدكم ما لم يعجل, يقول: قد دعوت فلم يستجب لي.)

التاسع: أن يفتتح الدعاء بذكر الله عز وجل, فلا يبدأ بالسؤال, قال أبو سلمة الدارني رحمه الله: من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم, ثم يسأله حاجته, ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

العاشر: وهو الأصل في الإجابة: التوبة, وردّ المظالم, والإقبال على الله عز وجل فلذلك هو السبب القريب في الإجابة. قال العباس رضي الله عنه: لم ينزل بلاء من السماء إلا بذنب, ولم يكشف إلا بتوبة.

الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده لا ليستقروا في مناكبها, بل ليتخذوها منزلاً فيتزودوا منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم, ويكتنزون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً, محترزين من مصايدها ومعاطبها, ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها. فالناس في هذا العالم سفر, وأول منازله المهد, وآخرها اللحد, والوطن هو الجنة والنار. والعمر مسافة السفر, فسنوه مراحله, وشهوره فراسخه, وأيامه أمياله, وأنفاسه خطواته, وطاعته بضاعته, وأوقاته رءوس أمواله, وشهواته وأغراضه قطاع طريقه, وربحه الفوز بلقاء الله تعالى في دار السلام, مع الملك الكبير, والنعيم المقيم, وخسرانه البعد من الله تعالى مع الأنكال والأغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم فالغافل في غير طاعة تقرّبه إلى الله زلفى, متعرض في يوم التغابن لغبينة, وحسرة ما لها منتهى, ولهذا الخطر العظيم, والخطب الهائل, شمر الموفقون عن ساق الجدّ, وودعوا بملاذ النفس, واغتنموا بقايا العمر, حرصاً في طلب القرب من الملك الجبار, والسعي إلى دار القرار.

واعلم...أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى, وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى, وعارفاً بالله سبحانه. وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام الذكر والمواظبة عليه....فمن أراد....أن تترجح كفة حسناته, وتثقل موازين خيراته فليستوعب في الطاعة أكثر أوقاته, فإن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأمره مخطر, ولكن الرجا غير منقطع, والعفو من كرم الله منتظر, فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه.

فضيلة قيام الليل:

أما الآيات: فقوله تعالى: (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل) [المزمل:٢٠] وقوله سبحانه وتعالى: (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) [السجدة:١٦] وقوله تعالى: (استعينوا بالصبر والصلاة) [البقرة:١٥٣]

ومن الأخبار: قوله صلى الله عليه وسلم: (يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد, يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد, فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة, فإن توضأ انحلت عقدة, فإن صلى انحلت عقدة, فأصبح نشيطاً طيب النفس, وإلا أصبح خبيث النفس كسلان) وفي الخبر أنه ذكر عنده رجل ينام كل الليل حتى يصبح فقال: (ذاك رجل بال الشيطان في أذنه)

وفي الصحيح عن جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه الله إياه.)

وقال صلى الله عليه وسلم: (من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين, كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات)

وقال علية الصلاة والسلام :(أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل)

قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تفطرت قدماه, فقيل له: أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً.

ومن الآثار: كان ابن مسعود رضي الله عنه, إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوي كدوي النحل. قيل للحسن: ما بال المتهجدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نوراً من نوره.

الأسباب الميسرة لقيام الليل:

الأول: أن لا يكثر الأكل, فيكثر الشرب, فيغلبه النوم, ويثقل عليه القيام.

الثاني: أن لا يتعب نفسه بالنهار في الأعمال التي تعيا بها الجوارح, وتضعف بها الأعصاب, فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم.

الثالث: أن لا يترك القيلولة بالنهار, فإنها سنة للاستعانة على قيام الليل.

الرابع: أن لا يحتقب الأوزار بالنهار, فإن ذلك مما يقسي القلب, ويحول بينه وبين أسباب الرحمة. قال رجل للحسن: يا أبا سعيد, إني أبيت معافي, وأحب قيام الليل, وأعدّ طهوري, فما لي لا أقوم ؟ قال: ذنوبك قيدتك.

فالذنوب كلها تورث قساوة القلب, وتمنع من قيام الليل, وأخصها بالتأثير تناول الحرام. قال بعضهم: كم من أكلة منعت من قيام الليل.

وكما أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر, فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات.

الخامس: سلامة القلب من الحقد على المسلمين, وعن البدع, وعن فضول هموم الدنيا, فالمستغرق الهم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام.

السادس: خوف يلزم القلب, مع قصر الأمل, فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة, ودركات جهنم طار نومه, وعظم حذره.

السابع: أن يعرف فضل قيام الليل بسماع الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه, فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان.

الثامن: وهو أشرف البواعث الحب لله...فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة...التلذذ بالمناجاة, فتحمله لذة المناجاة...على طول القيام.

الربع الثاني: ربع العادات

كتاب آداب الأكل

العلم والعمل لا تمكن المواظبة عليهما إلا بسلامة البدن, ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات, والتناول بقدر الحاجة على تكرر الأوقات.

فمن يقدم على الأكل ليستعين به على العلم والعمل, ويقوى به على التقوى, فلا ينبغي أن يترك نفسه مهملاً سدى, يسترسل في الأكل استرسال البهائم في المرعى.

الآداب التي تتقدم الأكل:

الأول: أن يكون الطعام بعد كونه حلالاً في نفسه, طيباً في جهة مكسبه.

الثاني: غسل اليد...لأن اليد لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة.

الثالث: أن يوضع الطعام على السفرة الموضوعة على الأرض فهو أقرب إلى فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم من رفعه على المائدة.

الرابع: أن يحسن الجلسة على السفرة, وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (لا أكل متكئاً)

الخامس: أن ينوى بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى. ويعزم مع ذلك على تقليل الأكل.

السادس: أن يرضي بالموجود من الرزق, والحاضر من الطعام, ولا يجتهد في التنعم.

السابع: أن يجتهد قي تكثير الأيدي على الطعام قال رسول الله علية الصلاة والسلام: (اجتمعوا على طعامكم يبارك لكم فيه)

الآداب حال الأكل:

أن يبدأ بـ " بسم الله " في أوله, وبـ " الحمد لله " في آخره, ويجهر بذلك ليذكر به غيره. وأن يأكل باليمنى. ويصغر اللقمة, ويجود مضغها. وما لم يبتلعها لم يمد اليد إلى الأخرى, فإن في ذلك عجلة في الأكل. وأن لا يذم مأكولاً, كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعيب مأكولاً, كان إذا أعجبه أكله, وإلا تركه. وأن يأكل مما يليه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كل مما يليك), وأن لا يأكل من وسط الطعام. ولا ينفخ في الطعام الحار, بل يصبر إلى أن يسهل أكله. وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها, وليمط ما كان بها من أذى, ولا يدعها للشيطان.)

وأما الشرب, فأدبه أن يأخذ الكوز بيمينه, ويقول: " بسم الله " ولا يشرب قائماً, ولا مضطجعاً, فإنه صلى الله عليه وسلم: " نهى عن الشرب قائماً ", وروى أنه صلى الله عليه وسلم " شرب قائماً ", ولعله كان لعذر. ولا يتنفس في الكوز, ويشرب في ثلاثة أنفاس, يحمد الله في أواخرها, ويسمى الله في أوائلها.

والكوز يدار على القوم يمنة, وقد شرب النبي صلى الله عليه وسلم لبناً, وأبو بكر رضي الله عنه عن شماله, وأعرابي عن يمينه, فناوله الأعرابي, وقال: (الأيمن فالأيمن)

ما يستحب بعد الطعام:

يمسك قبل الشبع, ويلعق أصابعه, ثم يمسح بالمنديل, ثم يغسلها, ويشكر الله تعالى بقلبه على ما أطعمه, فيرى الطعام نعمة منه, قال الله تعالى: (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله) [البقرة:١٧٢] فإن أكل طعام الغير فليدع له, وإن أفطر عند قوم فليقل: أفطر عند الصائمون, وأكل طعامكم الأبرار, وصليت عليكم الملائكة.

كتاب آداب النكاح

الترغيب في النكاح:

أما من الآيات: فقد قال الله تعالى: (وأنكحوا الأيامى منكم) [النور:٣٢] وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذريةً) [الرعد:٣٨] ومدح أولياءه بسؤال ذلك في الدعاء, فقال: (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قُرة أعينٍ) [الفرقان:٧٤]

وأما الأخبار: فقوله صلى الله عليه وسلم: (من استطاع منكم الباءة فليتزوج, فإنه أغضُّ للبصر, وأحصن للفرج, ومن لا, فليصم فإن الصوم له وجاء) وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا جاءكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه, إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض, وفساد كبير)

وأما الآثار: فقال عمر رضي الله عنه: لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور.

فوائد النكاح:

الفائدة الأولى: الولد, والمقصود إبقاء النسل, وأن لا يخلو العالم من جنس الإنس.

وفي التوصل إلى الولد قربة من أربعة أوجه:

الأول: موافقة محبة الله بالسعي في تحصيل الولد إبقاء جنس الإنسان.

الثاني: السعي في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم, ورضاه بتكثير ما به مباهاته.

الثالث: أن يبقى بعده ولداً صالحاً يدعو له.

الرابع: أن يموت الولد قبله فيكون شفيعاً له, قال صلى الله عليه وسلم: (من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحلم, أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهم) قيل: يا رسول واثنان ؟ قال: (واثنان)

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان, ودفع غوائل الشهوة, وغض البصر, وحفظ الفرج...فالنكاح سبب دفع غائلة الشهوة, فإن الشهوة إذا غلبت, ولم يقاومها قوة التقوى جرت إلى اقتحام الفواحش. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه: (اللهم أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي وشر منيي) فما يستعيذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجوز التساهل فيه لغيره.

ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة, فيستحب لصاحبها الزيادة على الواحدة إلى الأربع, وكان من الصحابة من له الثلاث والأربع, ومن كان له اثنتان لا يحصى, ومهماً كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة, فالمراد تسكين النفس, فلينظر إليه في الكثرة والقلة.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة, وإراحة للقلب, وتقوية له على العبادة, فإن النفس ملول, وهي عن الحق نفور لأنه خلاف طبعها, فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت, وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل...فإن الإنسان...لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته, ولم يتفرغ للعلم والعمل, فالمرأة الصالحة المصلحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل, والصبر على أخلاقهن, واحتمال الأذى منهن, والسعي في إصلاحهن, وإرشادهن إلى طريق الدين, والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن, والقيام بتربيته الأولاده, فكل هذه أعمال عظيمة الفضل.

الخصال المطيبة للعيش:

الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفي مقاصده:

الأولى: أن تكون صالحة ذات دين, فهذا هو الأصل, وبه ينبغي الاعتناء, فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها, أزرت بزوجها, وسودت بين الناس وجهه, وشوشت بالغيرة قلبه, وتنغص بذلك عيشه, فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء ومحنة, وإن سلك سبيل التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه, ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة.

الثانية حُسن الخُلق وذلك أصل مهم, فإنها إذا كانت سليطة بذيئة اللسان, سيئة الخلق, كافرة للنعم, كان الضرر منها أكثر من النفع.

الثالثة: حسن الوجه, فذلك أيضاً مطلوب, إذ به يحصل التحصن, والطبع لا يكتفى بالذميمة غالباً, وما نقلناه من الحث على الدين, وأن المرأة لا تنكح لجمالها ليس زاجر عن رعاية الجمال, بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين. قال عليه الصلاة والسلام: (خير نسائكم من إذا نظر إليها زوجها سرته, وإذا أمرها أطاعته, وإذا غاب عنها حفظته في نفسها وماله.)

الرابعة: أن تكون خفيفة المهر وفي الخبر (من بركة المرأة, سرعة تزويجها, وسرعة رحمها [أي الولادة] ويسر مهرها) وكان عمر رضي الله عنه ينهى عن المغالاة في الصداق.

الخامسة: أن تكون المرأة ولوداً قال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بالولود الودود)

السادسة: أن تكون بكراً, قال عليه الصلاة والسلام لجابر رضي الله عنه, وقد تزوج ثيباً: (هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك)

السابعة: أن تكون من أهل البيت والصلاح...فإنها سترى بناتها وبنيها.

آداب المعاشرة وما يجري في دوام النكاح:

على الزوج مراعاة الاعتدال والأدب:

فالأدب الأول: حسن الخلق معهن, واحتمال الأذى منهن, ترحماً عليهن, لقصور عقلهن, قال الله تعالى: (وعاشروهن بالمعروف) [النساء:١٩] واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها, بل احتمال الأذى منها, والحلم عند طيشها وغضبها. اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام, وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل.

الثاني: أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة, والمزح, والملاعبة, فهي التي تطيب قلوب النساء. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح معهن, روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسابق عائشة في العدو, فسبقته يوماً, وسبقها في بعض الأيام, فقال عليه الصلاة والسلام: (هذه بتلك) وقال صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله) وقال لقمان رحمه الله: ينبغي للعاقل أن يكون في أهله كالصبي, وإذا كان في القوم وجد رجلاً.

الثالث: أن لا ينبسط في الدعابة, وحسن الخلق, والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها, ويسقط بالكلية هيبته عندها, بل يراعي الاعتدال فيه, فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً, ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات ألبته, بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض.

الرابع: الاعتدال في الغيرة, وهو أن لا يتغافل عن مبادى الأمور التي تخشى غوائلها, ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن. قال عليه الصلاة والسلام: (إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل, وهي غيرة الرحل على أهله في غير ريبة)

الخامس: الاعتدال في الإنفاق, فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق, ولا ينبغي أن يسرف, بل يقتصد, قال تعالى: (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) [الأعراف:٣١] وقال عز وجل: (ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط) [الإسراء:٢٩] وقال عليه الصلاة والسلام: (دينار أنفقته في سبيل الله, ودينار أنفقته في رقبة, ودينار تصدقت به على مسكين, ودينار أنفقته على أهلك, أعظمها أجراً: الذي أنفقته على أهلك)

وأهم ما يجب مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال, ولا يدخل مداخل السوء لأجلها, فإن في ذلك جناية عليها, لا مراعاة لها.

السادس: أن يتعلم المتزوج من علم الحيض, وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب, ويعلم زوجته أحكام الصلاة....وأن يلقنها اعتقاد أهل السنة, ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها, ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين, ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه.

السابع: أن كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن, ولا يميل إلى بعضهن, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى _ وفي لفظ _ ولم يعدل بينهما, جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل) وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت, وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار, قال الله تعالى: (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم) [النساء:١٢٩] أي: أن تعدلوا في شهوة القلب, وميل النفس, ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعدل بينهن في العطاء, والبيتوتة في الليالي, ويقول (اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك, ولا أملك) يعني: الحب

الثامن: النشوز, فإذا وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما, فإن كان من جانبهما جميعاً, أو من الرجل...فلا بد من حكمين, أحدهما من أهله, والآخر من أهلها, لينظرا بينهما ويصلح أمرهما قال تعالى: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) [النساء:٣٥] وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء, فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة, ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها, وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف, فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع, فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح, ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه, وقد قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حق المرأة على الرجل ؟ قال: (يطعمها إذا طعم, ويكسوها إذا اكتسى ولا يقبح الوجه ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ولا يهجرها إلا في البيت.)

التاسع: في الطلاق, وليعلم أنه مباح, وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل, ومهما طلقها فقد آذاها, ولا يباح له إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه. قال ابن مسعود في قوله تعالى: (ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشةٍ مبينةٍ) [الطلاق:١] مهما بذت على أهله, وآذت زوجها فهو فاحشة. ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور:

الأول: أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه.

الثاني: أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث.

الثالث: أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف.

الرابع: أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا في النكاح, يروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأة فقيل له: ما الذي يريبك منها ؟ فقال: العاقل لا يهتك ستر امرأته فلما طلقها قيل له: لم طلقتها ؟ فقال: ما لي ولامرأةِ غيري.

حقوق الزوج على الزوجة:

عليها طاعة زوجها في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه, وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا صلت المرأة خمسها, وصامت شهرها, وحفظت فرجها, وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها)

وحقوق الزوج على الزوجة كثيرة, وأهمها أمران:

أحدهما: الصيانة والستر.

والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة, والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً, وهكذا كانت عادة النساء في السلف, كان الرجل إذا خرج من منزلة, تقول له امرأته أو ابنته: إياك وكسب الحرام, فإنا نصبر على الجوع والضر, ولا نصبر على النار.

والقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل: أن تكون قاعدة في قعر بيتها...تحفظ بعلها في غيبته, وتطلب مسرته في جميع أمورها, ولا تخونه في نفسها وماله, ولا تخرج من بيتها إلا بأذنه, همها صلاح شأنها, وتدبير بيتها, مقبلة على صلاتها وصيامها, وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله, وتقدم حقه على حقها وحق سائر أقاربها, متنظفة في نفسها, مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء, مشفقة على أولادها, حافظة للستر عليهم, قصيرة اللسان عن سب الأولاد, ومراجعة الزوج.

ومن آدابها: أن لا تتفاخر على زوجها بجمالها, ولا تزدري زوجها لقبحه.

ومن آدابها: ملازمة الصلاح, واللعب والانبساط في حضور زوجها. ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال.

ومن آدابها: أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها.

كتاب آداب الكسب والمعاش

نحمد الله الذي...كور الليل على النهار, فجعل الليل لباساً, والنهار معاشاً, لينتشروا في ابتغاء فضله...فالدنيا دار التشمير والاكتساب, وليس التشمير في الدنيا مقصوراً على المعاد دون المعاش, بل المعاش ذريعة إلى المعاد ومعين عليه, فالدنيا مزرعة الآخرة, ومدرجة إليها.

فضل الكسب والحث عليه:

أما من الكتاب: فقوله تعالى: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) [البقرة:١٩٨] وقوله تعالى: (وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) [المزمل:٢٠] وقوله : (فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) [الجمعة:١٠]

أما من الأخبار: فقوله صلى الله عليه وسلم: (لأن يأخذ أحدكم حبلة فيحتطب بها على ظهره, خير من يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله, فيسأله أعطاه ,أو منعه)

وأما الآثار: فقد لقمان لابنه: يا بني, استغن بالكسب الحلال عن الفقر, فإنه ما افتقر أحد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه, وضعف في عقله, وذهاب مروءته, وأعظم من هذا استخفاف الناس به.

وقال عمر رضي الله عنه: لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق, يقول: اللهم ارزقني, فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه, ولا في أمر آخرته.

وقيل لأحمد: ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده, وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي ؟ فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم, ألم يسمع قول النبي عليه الصلاة والسلام: (إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي)

العدل واجتناب الظلم في المعاملة:

العدل ألا يضر بأخيه المسلم, والضابط الكلي فيه: أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه, فكل ما لو عُومِل به شقَّ عليهُ, وثقل على قلبه, فينبغي أن لا يعامل غيره به, بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره قال بعضهم: من باع أخاه شيئاً بدرهم, وليس يصلح لو اشتراه لنفسه إلا بخمسة دوانق, فإنه قد ترك النصح المأمور به في المعاملة, ولم يحب لأخيه ما يحب لنفسه, هذه جملته.

فأما تفصيله في أربعة أمور: أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها, وأن لا يكتم من عيوبها وخفايا صفاتها شيئاً أصلاً, وأن لا يكتم في وزنها ومقدارها شيئاً, وأن لا يكتم من سعرها ما لو عرفه المعامل لامتنع عنه.

الأول: فهو ترك الثناء, فإن وصفه للسلعة إن كان بما ليس فيها فهو كذب, فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم مع كونه كذباً, وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة. وهو محاسب على كلمة تصدر منه, (ما يلفظ من قولٍ إلا لديه رقيب عتيد) [ق:١٨]

ولا ينبغي أن يحلف عليه ألبته, فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس, وهي من الكبائر التي تذر الديار بلاقع, وإن كان صادقاً فقد جعل الله تعالى عرضة لأيمانه, وقد أساء فيه, إذ الدنيا أخس من أن يقصد ترويجها بذكر اسم الله من غير ضرورة. وفي الخبر: (اليمين الكاذبة منفقة للسلعة ممحقة للبركة) وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاثة لا ينظر الله يوم القيامة: عائل مستكبر, ومنان بعطيته, ومنفق سلعته بيمينه)

الثاني: أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها, ولا يكتم منها شيئاً, فذلك واجب, فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً, والغش حرام, وكان تاركاً للنصح في المعاملة, والنصح واجب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من غشنا فليس منا) ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بايع جريراً على الإسلام, ذهب لينصرف, فجذب ثوبه, واشترط عليه النصح لكل مسلم.

إن القيام بحقوق الله مع المخالطة والمعاملة لا يقوم بها إلا الصديقون, ولن يتيسر ذلك على العبد إلا بأن يعتقد أمرين:

أحدهما: أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه, بل يمحقه ويذهب ببركته وما يجمعه من مفرقات التلبيسات يهلكه الله دفعة واحدة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (البيعان إذا صدقا ونصحا, بورك لهما في بيعهما, وإن كتما وكذبا نزعت بركة بيعهما)

ومن عرف أن الدرهم الواحد قد يبارك فيه حتى يكون سبباً لسعادة الإنسان في الدنيا والدين, والآلاف المؤلفة قد ينزع الله البركة منها, حتى تكون سبباً لهلاك مالكها, بحيث يتمنى الإفلاس منها, ويراه أصلح له في بعض أحواله, فيعرف معنى قولنا: إن الخيانة لا تزيد في المال, والصدقة لا تنقص منه.

المعنى الثاني: الذي لا بد من اعتقاده, ليتم له النصح ويتيسر عليه: أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها خير من ربح الدنيا, وأن فوائد أموال الدنيا تنقضي بانقضاء العمر, وتبقى مظالمها وأوزارها, فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير, والخير كله في سلامة الدين.

الثالث: ألا يكتم في المقدار شيئاً, وذلك بتعديل الميزان, والاحتياط فيه وفي الكيل, فينبغي أن يكيل كما يكتال, قال الله تعالى: (ويل للمطففين * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) [المطففين:١_٣] ولا يخلص من هذا إلا بأن يرجح إذا أعطى. قال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو, يزن ويحلف بالنهار, وينام بالليل.

الرابع: أن يصدق في سعر الوقت, ولا يخفي منه شيئاً, فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الركبان, ونهى عن النجش.

الإحسان في المعاملة:

أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً, والعدل سبب النجاة فقط, وهو يجري من التجارة مجرى رأس المال. والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة, وهو يجري من التجارة مجرى الربح, ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله, فكذا في معاملات الآخرة, فلا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم, ويدع أبواب الإحسان, وقد قال الله: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) [النحل:٩٠] ونعنى بالإحسان: فعل ما ينتفع به المعامل, وهو غير واجب عليه, ولكنه تفضل منه...وتنال مرتبة الإحسان بواحد من أمور:

الأول: أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة.

الثاني: في استيفاء الثمن وسائر الديون مرة بالمسامحة وحط البعض, ومرة بالتأخير. قال عليه الصلاة والسلام: (رحم الله امرأً سهل البيع, سهل الشراء سهل القضاء)

الثالث: في توفية الدين. ومن الإحسان فيه حسن القضاء. فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خيركم أحسنكم قضاء)

شفقة التاجر على دينه:

تتم شفقة التاجر على دينه بمراعاة أمور:

الأول: حسن النية في ابتداء التجارة, فلينو بها الاستعفاف عن السؤال.

الثاني: أن يقصد القيام في صنعته أو تجارته بفرض من فروض الكفايات.

الثالث: أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة, وأسواق الآخرة المساجد, قال الله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيعٌ عن ذكرِ الله وإقامِ الصلاة وإيتاءِ الزكاةِ) [النور:٣٧] وقال الله تعالى: (في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمُهُ) [النور:٣٦] فينبغي أن يجعل أول النهار إلى وقت دخول السوق لآخرته, فيلازم المسجد, ويواظب على الأوراد. وكان عمر رضي الله عنه يقول للتجار: اجعلوا أول نهاركم لآخرتكم, وما بعده لدنياكم. وكان صالحو السلف يجعلون أول النهار وآخره للآخرة والوسط للدنيا. فما يفوته من فضيلة التكبيرة الأولى مع الإمام في أول الوقت لا توازيها الدنيا بما فيها وقد كان السلف يبتدرون عند الآذان ويخلون الأسواق

الرابع: أن لا يقتصر على هذا, بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق, ويشتغل بالتهليل والتسبيح, فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل.

الخامس: أن لا يكون شديد الحرص على السوق والتجارة, وذلك بأن يكون أول داخل وآخر خارج.

السادس: أن لا يقتصر على اجتناب الحرام, بل يتقى مواقع الشبهات ومواطن الريب.

السابع: ينبغي أن يراقب جميع مجارى معاملته...فإنه مراقب ومحاسب, فليعد الجواب ليوم الحساب والعقاب, في كل فعله وقوله, لِمَ أقدم عليها ؟ ولأجل ماذا ؟

كتاب الحلال والحرام

قال الله تعالى: (كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) [المؤمنون:٥١] قيل إن المراد به: الحلال, وقال تعالى: (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) [البقرة:١٨٨] والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار, مطعمه حرام, وملبسه حرام, وغذي بالحرام, يرفع يديه, فيقول: يا رب, يا رب, فأنى يستجاب له.)

وقال عليه الصلاة والسلام: (كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به)

وورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده, ثم سأل عبده فقال: تكهنت لقوم فأعطوني, فأدخل أصبعه في فيه, وجعل يقيء.

وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم تغفلون عن أفضل العبادة, وهو الورع.

وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما أدرك من أدرك, إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

وقال يحيى بن معاذ: الطاعة خزانه من خزائن الله, إلا أن مفاتحها الدعاء, وأسنانه لقم الحلال.

وقال سهل رحمه الله: من أكل الحرام عصت جوارحه, شاء أم أبى, علم أو لم يعلم, ومن كانت طعمته حلالاً أطاعته جوارحه, ووفقت للخيرات.

وعن علي رضي الله عنه قال: إن الدنيا حلالها حساب, وحرامها عذاب.

وروى أن بعض الصالحين قال: نحن لا نأكل إلا حلالاً, فلذلك تستقيم قلوبنا.

التحاب في الله تعالى, والأخوة في دينه من أفضل القربات, وألطف ما يستفاد من الطاعات, ولها شروط بها يلتحق المتصاحبون بالمتحابين في الله تعالى, وفيها حقوق بمراعاتها تصفو الأخوة عن شوائب الكدورات, ونزغات الشيطان.

فضيلة الألفة والأخوة:

أعلم أن الألفة ثمرة حسن الخلق, والتفرق ثمرة سوء الخلق, فحسن الخلق يوجب التآلف, والتوافق, وسوء الخلق يثمر التباغض, والتحاسد, والتدابر.

وقد ورد الثناء على الألفة, سيما إذا كانت الرابطة هي التقوى, والدين, وحب الله, من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع. قال الله تعالى مظهراً عظيم منته على الخلق بنعمة الألفة: (لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) [الأنفال:٦٣] وقال: (فأصبحتم بنعمته إخواناً) [آل عمران:١٠٣] أي بالألفة, وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي, اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي)

وقال علي رضي الله عنه: عليكم بالإخوان, فإنهم عدة في الدنيا والآخرة, ألا تسمع إلى قول أهل النار: (فما لنا من شافعين*ولا صديق حميم) [الشعراء:١٠٠_١٠١]

البغض في الله:

اعلم أن كل من يحب في الله, لا بد أن يبغض في الله, فإنك إن أحببت إنساناً لأنه مطيع لله, ومحبوب عند الله, فإن عصاه فلا بد أن تبغضه, لأنه عاص لله, وممقوت عند الله, ومن أحب بسبب, فبالضرورة يبغض لضده, وهذا متلازمان لا ينفصل أحدهما عن الآخر.

الصفات المشروطة فيمن تختار صحبته:

اعلم أنه لا يصلح للصحبة كل إنسان. قال صلى الله عليه وسلم: المرء على دين خليله, فلينظر أحدكم من يخالل) ولا بد أن يتميز بخصال وصفات يرغب بسببها في صحبته.....فينبغي أن يكون فيمن تؤثر صحبته خمس خصال: أن يكون عاقلاً, حسن الخلق, غير فاسق, ولا مبتدع, ولا حريص على الدنيا.

أما العقل فهو رأس المال, وهو الأصل فلا خير في صحبة الأحمق, فإلى الوحشة والقطيعة ترجع عاقبتها وإن طالت, فالأحمق قد يضرك وهو يريد نفعك وإعانتك من حيث لا يدري.

وأما حسن الخلق, فلا بد منه, إذ ربّ عاقل يدرك الأشياء على ما هي عليه, ولكن إذا غلبه غضب, أو شهوة, أو بخل, أو جبن أطاع هواه, وخالف ما هو المعلوم عنده لعجزه عن قهر صفاته وتقويم أخلاقه, فلا خير في صحبته. قال بعض الأدباء: لا تصحب إلا من يكتم سرك ويستر عيبك ويكون معك في النوائب ويؤثرك بالرغائب

وأما الفاسق المصر على الفسق, فلا فائدة في صحبته, لأن من يخاف الله لا يصرّ على كبيرة, ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته, ولا يوثق بصداقته, بل يتغير بتغير الأغراض. قال عمر رضي الله عنه: فلا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره, ولا تطلعه على سرك, واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى.

وأما المبتدع ففي صحبته خطر سراية البدعة, وتعدى شؤمها إليه, فالمبتدع مستحق للهجر والمقاطعة, فكيف تؤثر صحبته ؟ قال عمر رضي الله عنه في الحث على طلب التدين في الصديق: عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم, فإنهم زينة في الرخاء, وعدة في البلاء,...واحذر صديقك إلا الأمين من القوم, ولا أمين إلا من خشى الله.

وأما الحريص على الدنيا, فصحبته سم قاتل, لأن الطباع مجبولة على التشبه والاقتداء, بل الطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري صاحبه, فمجالسة الحريص على الدنيا تحرك الحرص, ومجالسة الزاهد تزهد في الدنيا, فلذلك تكره صحبة طلاب الدنيا, ويستحب صحبة الراغبين في الآخرة.

قال بعض العلماء: لا تصحب إلا أحد رجلين: رجل تتعلم منه شيئاً في أمر دينك فينفعك, أو رجل تُعلّمهُ شيئاً في أمرِ دينه فيقبلُ منك, والثالث فاهرب منه.

وقال بعضهم: الناس أربعة: فواحد حلو كله فلا يشبع منه, وآخر مرّ كله فلا يؤكل منه, وآخر فيه حموضة فخذ من هذا قبل أن يأخذ منك, وآخر فيه ملوحة فخذ منه وقت الحاجة فقط.

وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: لا تصحب خمسة: الكذاب فإنك منه على غرور, وهو مثل السراب يقرب منك البعيد, ويبعد منك القريب, والأحمق فإنك لست منه على شيء, يريد أن ينفعك فيضرك, والبخيل فإنه يقطع بك أحوج ما تكون أحوج إليه, والجبان فإنه يسلمك ويفر عند الشدة, والفاسق فإنه يبيعك بأكلة أو أقل منها. فقيل: وما أقل منها ؟ قال: الطمع فيها ثم لا ينالها.

قال المأمون: الإخوان ثلاثة: أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه, والآخر مثله مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت, والثالث: مثل الداء, لا يحتاج إليه قط.

قال أبو ذر رضي الله عنه: الوحدة خير من جليس السوء, والجليس الصالح خير من الوحدة.

قال لقمان: يا بني جالس العلماء, وزاحمهم بركبتيك, فإن القلوب لتحيا بالحكمة, كما تحيا الأرض الميتة بوابل المطر.

حقوق الأخوة والصحبة:

الحق الأول: المواساة بالمال.

الحق الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات, ولها درجات فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة, لكن مع البشاشة والاستبشار, وإظهار الفرح وقبول المنة.

الحق الثالث: السكوت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته, إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف, أو نهي عن منكر, ولم يجد رخصة في السكوت, فإذ ذلك لا يبالي بكراهته, فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق, وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر.

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوئ أهله, فهو من الغيبة, وذلك حرام في حق كل مسلم, ويزجرك عنه أمران:

الأول: أن تطالع أحوال نفسك, فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً, فهوّن على نفسك ما تراه من أخيك, وقدّر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة, كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به.

الثاني: أن تعلم أنك لو طلبت منزهاً من كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة, ولن تجد من تصحبه أصلاً, فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ, فإذا غلبت المحاسن المساوئ فهو الغاية والمنتهى. قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير, والمنافق يطلب العثرات.

وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه فيجب عليك ترك إساءة الظن به, وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد, ما أمكن أن تحمله على وجه حسن, فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة...فعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان ما أمكن.

وستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين.

الحق الرابع: التعليم والنصيحة: فإذا كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا, فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم, فعليك النصيحة, ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر, لا يطلع عليه أحد, فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة, وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة, إذا قال صلى الله عليه وسلم: (المؤمن مرآة المؤمن) أي: يرى منه ما لا يرى من نفسه, فيستفيد المر بأخيه معرفة عيوب نفسه, ولو انفرد لم يستفيد, كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة. وقال الشافعي رحمه الله: من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه, ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه. وقيل لمسعر: أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ قال: إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم, وإن قرعني بين الملأ فلا.

فإن قلت: فإذا كان في النصح ذكر عيوب ففيه إيحاش القلب, فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن تنبيه عين الشفقة, وهو استمالة القلوب, أعنى قلوب العقلاء, وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم, فإن من نبهك على فعل مذموم تعاطيته, أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكى نفسك عنها, كان كمن نبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك, وقد همت بإهلاكك, فإن كنت تكره ذلك فما أشد حمقك, فالصفات الذميمة عقارب, وحيات, وهي في الآخرة مهلكات, فإنها تلدغ القلوب والأرواح, وألمها أشدُّ مما يلدغ الظواهر والأجساد. ولذلك كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله امرأً أهدى إلى أخيه عيوبه.

وهذا في عيب هو غافل عنه, فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه, فإنما هو مقهور عليه من طبعه, فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه, وإن كان يظهره فلا بد من التلطف في النصح بالتعريض وبالتصريح إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش.

الحق الخامس: الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب, وقد قال عليه الصلاة والسلام: (إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره) وإنما أمر بالأخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب, فإنه إذا عرف أنك تحبه أحبك بالطبع, لا محاله, فإذا عرفت أنه أيضاً يحبك, زاد حبك لا محالة, فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف. ومن ذلك: أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره, قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته, وتوسع له في المجلس, وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه. ومن ذلك: أن تثنى عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده, فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة....من غير إفراط أو كذب. ومن ذلك: أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح, فإن إخفاء ذلك محض الحسد. وأعظم من ذلك تأثيراً في المحبة: الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء....فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة.

الحق السادس: العفو عن الزلات والهفوات, وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية, أو في حقك بتقصيره في الأخوة, أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها, فعليك بالتلطف في نصحه بما يقوم أوده, ويجمع شمله, ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. حكي عن أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه: ألا تقطعه وتهجره فقال: أجوج ما كان إليّ في هذا الوقت أما زلته في حقه, بما يوجب إيحاشه, فلا خلاف أن الأولى العفو والاحتمال, ومهما اعتذر إليك أخوك كاذباً كان أو صادقاً, فاقبل عذره.

قال بعضهم: الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته, والمعاتبة خير من القطيعة, والقطيعة خير من الوقيعة, وينبغي أن لا يبلغ في البغضة عند الوقيعة.

الحق السابع: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه, ولأهله, فتدعو له كما تدعو لنفسك لا تفرق بين نفسك وبينه, فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق, فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب, قال الملك: ولك مثل.) وكان أبو الدرداء يقول: إني أدعو لسبعين من إخواني في سجودي وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول: وأين مثل الأخ الصالح ؟ يدعو لك في ظلمة الليل, وأنت تحت أطباق الثرى.

الحق الثامن: الوفاء والإخلاص, ومعنى الوفاء: الثبات على الحب, وإدامته إلى الموت معه ,وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه, فإن الحب إنما يراد للآخرة, قال عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله: (ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه.) قال بعضهم: قليل وفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة.

ومن الوفاء: أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه, واتسعت ولايته, وعظم جاهه, فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم.

وأوصى بعض السلف ابنه فقال: يا بني, لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك, وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك, وإن علت مرتبته لم يرتفع عليك.

واعلم أنه ليس من الوفاء: موافقة الأخ فيما يخالف الحق, في أمر يتعلق بالدين, بل الوفاء له المخالفة.

ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء: أن تكون شديد الجزع من المفارقة, نفور الطبع عن أسبابها.

ومن الوفاء: أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه

ومن الوفاء: أن لا يصادق عدو صديقه.

الحق التاسع: التخفيف وترك التكلف والتكليف, وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه, فلا يستمد منه من جاه ومال, ولا يكلفه التواضع له, والتفقد لأحواله, والقيام بحقوقه, بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى. قال الفضيل: إنما تقاطع الناس بالتكلف, يزور أحدهم أخاه فيتكلف له, فيقطعه ذلك عنه. قيل لبعضهم: من تصحب ؟ قال: من يرفع عنك ثقل التكلف, وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ. وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول: أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي, وأتحفظ منه, وأخفهم عليّ من أكون معه كما أكون وحدي. وقد قيل: من سقطت كلفته دامت ألفته, ومن خفت مؤنته دامت مودته.

حقوق المسلم:

منها: أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد, إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالسهر الحمى)

ومنها: أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)

ومنها: أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه, فإن الله لا يحب كل مختال فخور, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد)

ومنها: أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض, ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يخل الجنة قتات) وقال الخليل بن أحمد: من نمّ لك نمّ عليك, ومن أخبرك بخبر غيرك, أخبر غيرك بخبرك.

ومنها: أن لا يزيد في الهجر على ثلاثة أيام مهما غضب عليه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث, يلتقيان فيعرض هذا, ويعرض هذا, وخيرهما الذي يبدأ بالسلام)

ومنها أن لا يدخل على أحد منهم إلا بأذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف

ومنها: أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان, قال صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا, ولم يرحم صغيرنا) وأن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً, قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: إن البرَّ شيء هين, وجه طليق, وكلام لين.

ومنها: أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به, قال صلى الله عليه وسلم: (ثلاث في المنافق: إذا حدث كذب, وإذا وعد أخلف, وإذا ائتمن خان)

ومنها: أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً, قال صلى الله عليه وسلم: (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ قالوا: بلى, قال: إصلاح ذات البين, وفساد ذات البين هي الحالقة)

ومنها: أن يستر عورات المسلمين قال صلى الله عليه وسلم: (من ستر على مسلم, ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة)

ومنها: أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام.

ومنها: أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله من ظلم غيره مهما قدر.

ومنها: تشميت العاطس.

ومنها: النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور عليه.

ومنها: أن ينزل الناس منازلهم.

ومنها: أن يحسن إلى كل من قدر عليه منهم.

ومنها: أن يعود مرضاهم.

ومنها: أن يشيع جنائزهم.

ومنها: أن ينصف الناس من نفسه.

ومنها: أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزله ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه.

ومنها: أن لا تستصغر منهم أحداً فتهلك, لأنك لا تدري لعله خير منك, فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله, ويختم له بالصلاح.

ومنها: أن لا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم, فالدنيا صغيرة عند الله, صغير ما فيها.

ومنها: أن لا تبذل لهم دينك من دنياهم, فتصغر في أعينهم, ثم تحرم دنياهم, فإن لم تحرم, كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومنها: أن لا تعادهم بحيث تظهر العداوة, فيطول الأمر عليك في المعاداة, ويذهب دينك ودنياك فيهم, ويذهب دينهم فيك, إلا إذا رأيت منكراً في الدين, فتعادى أفعالهم القبيحة, وتنظر إليهم بعين الرحمة, لتعرضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم.

ومنها: أن لا تسكن إليهم في مودتهم لك, وثنائهم عليك في وجهك, وحسن بشرهم لك, فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً, وربما لا تجده.

ومنها: أن لا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم.

ومنها: أن لا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية, فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟

ومنها: أن لا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل, ولا تنال الغرض.

ومنها: أن لا تعلُ عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم, فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر.

ومنها: أنك إذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها, فهو أخ مستفاد, وإن لم يقض فلا تعاتبه, فيصير عدواً تطول عليك مقاسته.

ومنها: أنك مهما رأيت منهم كرامة وخيراً فاشكر الله الذي سخرهم لك, واستعذ بالله أن يكلك إليهم.

حقوق الجوار:

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام, فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة, قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه.)

وقال عليه الصلاة والسلام: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره)

وقال صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه)

واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط, بل احتمال الأذى, ولا يكفى احتمال الأذى بل لا بد من الرفق, وإسداء الخير والمعروف.

شكا بعضهم كثرة الفار في داره, فقيل له: لو اقتنيت هراً ؟ فقال: أخشى أن يسمع الفار صوت الهر, فيهرب إلى بيوت الجيران, فأكون قد أحببت لهم ما لا أحب لنفسي.

وجملة حق الجار: أن يبدأه بالسلام, ويعوده في المرض, ويعزيه في المصيبة, ويهنئه في الفرح ويظهر السرور معه ويصفح عن زلاته ولا يتطلع إلى عوراته, ويستر ما ينكشف له من عوراته, ويغض بصره عن حرمته, ويرشده إلى ما يجهله في أمور دينه ودنياه.

حقوق الوالدين والولد:

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم, فأخص الأرحام وأمسها الولادة, فيتضاعف حق تأكد الحق فيها. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه ويعتقه.)

وجاء رجل فقال: يا رسول الله, هل بقي علي من بر أبوي شيء أبرهما بعد وفاتهما ؟ قال: نعم, الصلاة عليها _ أي الدعاء لهما _ والاستغفار لهما, وانفاذ عهدهما, وإكرام صديقهما, وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما)

وجاء رجل إلى عبدالله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده, فقال: هل دعوت عليه ؟ قال: نعم, قال: أنت أفسدته.

ويستحب الرفق بالولد, رأى الأقرع بن حابس النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقبل ولده الحسن, فقال: إن لي عشرة من الولد, ما قبلت واحداً منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام: (من لا يرحم لا يرحم)

حقوق الأقارب والرحم:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله تعالى: أنا الرحمن, وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي, فمن وصلها وصلته, ومن قطعها بتته) وقال عليه الصلاة والسلام: (من سره أن ينسأ له في أثره, ويوسع عليه رزقه, فليصل رحمه) وقال صلى الله عليه وسلم: (ليس الواصل بالمكافئ, ولكن الواصل إذا قطعت رحمه وصلها) وقال صلى الله عليه وسلم: (الصدقة على المسكين صدقة, وعلى ذي الرحم اثنتان.)

حقوق المملوك:

ملك اليمين يقتضي حقوقاً في المعاشرة لا بد من مراعاتها, فقد كان أخر ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم, وقد قال عليه الصلاة والسلام : (للملوك طعامه, وكسوته بالمعروف, ولا يكلف من العمل ما لا يطيق) وكان عمر رضي الله عنه يذهب إلى العوالي في كل يوم سبت, فإذا وجد عبداً في عمل لا يطيقه, وضع عنه.

فجملة حق المملوك أن يشركه في طعمته وكسوته, ولا يكلفه فوق طاقته, ولا ينظر إليه بعين الكبر والازدراء, وأن يعفو عن زلته, وأن يتفكر عند غضبه عليه, معاصيه وجنايته في حق الله تعالى وتقصيره في طاعته, مع أن قدرة الله عليه فوق قدرته.

للناس اختلاف كثير في العزلة والخلطة, وتفضيل إحداهما على الأخرى, ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها, وفوائد تدعو إليها, ومال أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفصيلها على المخالطة, وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة, واستكثار المعارف الإخوان, والتألف والتحبب إلى المؤمنين, والاستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى, ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب, والشعبي, وشريح, وابن المبارك, والشافعي, وأحمد بن حنبل, وجماعة.

فوائد العزلة:

الفائدة الأولى: التفرغ للعبادة.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة, ويسلم منها في الخلوة, وهي: الغيبة والنميمة, والرياء, والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر, ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

الفائدة الثالثة: الخلاص من الفتن والخصومات, وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها, والتعرض لأخطارها, وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات, فالمعتزل عنهم في سلامة منها.

الفائدة الرابعة: الخلاص من شر الناس, فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة, ومرة بسوء الظن, وتارة بالنميمة أو الكذب, فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفظ عن جميع ذلك.

الفائدة الخامسة: أن ينقطع الناس عنك, وينقطع طمعك عن الناس.

الفائدة السادسة: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى ومقاساة حمقهم وأخلاقهم.

فوائد المخالطة:

الفائدة الأولى: التعليم والتعلم وهما أعظم العبادات في الدنيا, ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة.

الفائدة الثانية: النفع والانتفاع, أما الانتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة, وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة, وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله, أو ببدنه فيقوم بحاجتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بحوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة

الفائدة الثالثة: التأديب والتأدب, ونعني به الارتياض بمقاساة الناس, والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس, وقهراً للشهوات, وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة, وهي أفضل من العزلة في حق من لم تتهذب أخلاقه, ولم تذعن لحدود الشرع شهواته.

الفائدة الرابعة: الاستئناس والإيناس, وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع العشرة والإنس. وقد يكون ذلك على وجه حرام...أو على وجه مباح ويستحب ذلك إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهيج دواعي النشاط في العبادة.

الفائدة الخامسة: في نيل الثواب وإنالته, أما النيل فبحضور الجنائز وعيادة المريض وحضور العيدين, وأما إنالته فهو أن يفتح الباب لتعوده الناس, أو ليعزوه في المصائب, أو يهنوه على النعم, فإنهم ينالون بذلك ثواباً.

الفائدة السادسة: التواضع, من أفضل المقامات, ولا يقدر عليه في الوحدة, وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة.

الفائدة السابعة: التجارب, فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجارى أحوالهم, والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا, وإنما تفيدها التجربة والممارسة, ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب.

كتاب آداب السفر

السفر وسيلة إلى الخلاص عن مهروب, أو الوصول إلى مطلوب ومرغوب فيه...فإن كان مطلبه العلم والدين, أو الكفاية للاستعانة على الدين, كان من سالكي سبيل الآخرة.

والسفر نوع حركة ومخالطة, وفيه فوائد وله آفات.

أقسام السفر:

القسم الأول: السفر في طلب العلم, قال عليه الصلاة والسلام: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة.)

ورحل جابر بن عبدالله رضي الله عنه, من المدينة إلى مصر, شهراً في حديث بلغه, وكان سعيد بن المسيب يسافر الأيام في طلب الحديث الواحد.

القسم الثاني: أن يسافر لأجل العبادة, إما لحج, أو جهاد.

القسم الثالث: أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين.

القسم الرابع: السفر هرباً مما يقدح في البدن, أو في المال.

فهذه أقسام الأسفار...ولتكن نيته الأخرة في جميع أسفاره...فلا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه في سفره, ومهما وجد قلبه متغيراً إلى نقصان فيقف ولينصرف.

وينوي في دخول كل بلدة أن يرى شيوخها, ويجتهد في أن يستفيد من كل واحد منهم أدباً, أو كلمة لينتفع بها.

ويلازم في الطريق الذكر, وقراءة القرآن.

كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة, وعمت الفترة, وفشت الضلالة, وشاعت الجهالة, واستشرى الفساد, وخربت البلاد, وهلك العباد, فإنا لله وإنا إليه راجعون, إذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه, وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه, فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت عنها مراقبة الخالق, واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات

وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يدل على ذلك بعد إجماع الأمة عليه, وإشارات العقول السليمة إليه: الآيات والأخبار والآثار.

أما الآيات: فيقول الله تعالى: (ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [آل عمران:١٠٤] وقال تعالى: (ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليلِ وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروفِ وينهون عن المنكرِ ويسارعون في الخيراتِ وأولئك من الصالحين) [آل عمران:١١٣_١١٤] فلم يشهد لهم بالصلاح بمجرد الإيمان بالله واليوم الآخر, حتى أضاف إليه الأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, وقال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة) [التوبة:٧١] فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر, فالذي هجر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خارج عن هؤلاء المنعوتين في هذه الآية, وقال تعالى: (كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) [آل عمران:١١٠]

وأما الأخبار: فمنها: ما روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه, أنه قال في خطبة خطبها: أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها, (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) [المائدة:١٠٥] وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ما من قوم عملوا بالمعاصي, وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم, فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إياكم والجلوس في الطرقات) قالوا: ما لنا بدّ, إنما هي مجالسنا نتحدث فيها, قال: (فإذا أبيتم إلا ذلك, فأعطوا الطريق حقها) قالوا: وما حق الطريق ؟ قال: (غض البصر, وكف الأذى, ورد السلام, والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)

وأما الآثار: فقد قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لتأمرن بالمعروف, ولتنهن عن المنكر, أو ليسلطن الله عليكم سلطاناً ظالماً, لا يجل كبيركم, ولا يرحم صغيركم, ويدعو عليه خياركم فلا يستجاب لهم, وتستنصرون فلا تنصرون, وتستغفرون فلا يغفر لكم.

وسئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء, فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده, ولا بلسانه, ولا بقلبه.

وقال بلال بن سعيد: إن المعصية إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها, فإذا أعلنت ولم تغير أضرت العامة.

وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يأتي العمال, ثم قعد عنهم, فقيل له: لو أتيتهم فلعلهم يجدون في أنفسهم, فقال: أرهب أن تكلمت أن يروا أن الذي بي غير الذي بي, وإن سكتُ رهبة أن آثم.

وهذا يدل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف فعليه أن يبعد عن ذلك الموضع

كتاب أخلاق النبوة

الحمد لله الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه وترتيبه, وأدب نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فأحسن تأديبه, وزكى أوصافه وأخلاقه, ووفق للاقتداء به من أراد تهذيبه, وحرم من التخلق بأخلاقه من أراد تخيبه.

جملة من محاسن أخلاقه:

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس, وأشجع الناس, وأعدل الناس, وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها, أو عصمة أمرها, أو تكون ذات محرم منه, وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم, لا يُسأل عن شيء إلا أعطاه وكان يخصف النعل, ويرقع الثوب, ويخدم في مهنة أهله, ويجب دعوة العبد والحر, ويقبل الهدايا ولو أنها جرعة لبن ويكافئ عليها, ولا يستكبر عن إجابة الأرملة والمسكين, يغضب لربه ولا يغضب لنفسه, وكان يعصب الحجر على بطنه من الجوع, إن وجد تمراً أكله, وإن وجد خبر بر أو شعير أكله, لا يأكل متكئاً, ولا على خوان, لم يشبع من خبز ثلاثة أيام متوالية حتى لقى الله تعالى إيثاراً على نفسه, لا فقراً ولا بخلاً, يجيب الوليمة, ويعود المرضى, ويشهد الجنائز, أشدّ الناس تواضعاً, وأسكنهم في غير كبر, وأبلغهم في غير تطويل, وأحسنهم بشراً, لا يهوله شيء من أمور الدنيا, ويلبس ما وجد من المباح, يردف خلفه عبده أو غيره, يركب ما أمكنه, مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة ومرة حماراً, يحب الطيب, ويكره الرائحة الرديئة, ويجالس الفقراء, ويؤاكل المساكين, ويكرم أهل الفضل, ويتألف أهل الشرف, يصل رحمه, ولا يحفو على أحد, يقبل معذرة من المعتذر إليه, يمزح ولا يقول إلا حقاً, يضحك من غير قهقهه, يرى اللعب المباح فلا ينكره, يسابق أهله, ترفع الأصوات عليه فيصبر.

ما ضرب بيده أحد قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى, وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله, وما خير بين أمرين قط إلا اختارهما أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك, وما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر, وكان إذا لقى أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة, وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله, وحيث انتهى به المجلس جلس, وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا, وكان أراف الناس بالناس, وخير الناس للناس, وأنفع الناس للناس, ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات, كان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً, وكان نزر الكلام وسمح المقالة, إذا نطق ليس بمهذار, وكان أوجز الناس كلاماً, وكان يتكلم بجوامع الكلام لا فضول ولا تقصير, وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة, ولا يقول المنكر, ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق, ويكنى عما اضطر الكلام إليه مما يكره, وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه, وإن غضب _ وليس يغضب إلا لله _ لم يقم لغضبه شيء.

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس, وأرغبهم في العفو, كان رفيق البشرة, لطيف الظاهر والباطن, يعرف في وجه غضبه ورضاه, وكان أجود الناس وأسخاهم, وكان في شهر رمضان كالريح المرسلة لا يمسك شيئاً, وكان أنجد الناس وأشجعهم, وكان أشد الناس تواضعاً في علو منصبه.

قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة, والسياسة التامة, وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب, علمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة, وأحبار الأولين والآخرين, وفقنا الله لطاعته في أمره, والتأسي به في فعله. آمين يا رب العالمين.

الربع الثالث: ربع المهلكات

كتاب القلب

أبواب الشيطان ومداخله إلى قلب الإنسان:

اعلم أن مثال القلب مثال حصن, والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن, فيملكه ويستولي عليه, ولا يقدر على حفظ الحصن إلا بحراسة أبواب الحصن ومداخله, ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه. ومن أبواب الشيطان:

الغضب, والحسد:

الغضب هو غول العقل, وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان, ومهما غضب لعب الشيطان به, كما يلعب الصبي بالكرة.

والحسد من أعظم مداخله.

الشبع على الطعام:

وإن كان حلالاً صافياً, فإن الشبع يقوي الشهوات, والشهوات أسلحة الشيطان.

ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة:

أولها: أن يذهب خوف الله من قلبه.

الثاني: أن يذهب رحمة الخلق من قلبه, لأنه يظن أنهم كلهم شباع.

الثالث: أنه يثقل عن الطاعة. الرابع: أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة.

الخامس: إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس.

السادس: أنه يهيج الأمراض.

البخل وخوف الفقر:

فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق, ويدعو إلى الادخار والكنز.

الطمع في الناس:

إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس,...وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه, والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

العجلة وترك التثبت في الأمور:

قال عز وجل: (وكان الإنسان عجولاً) [الإسراء:١١] وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة, والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل, والعجلة تمنع ذلك, وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري.

سوء الظن بالمسلمين:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن) [الحجرات:١٢] فمن يحكم بشرٍ على غيره بالظن, يحثه الشيطان أن يطول فيه اللسان بالغيبة, وينظر إليه بعين الاحتقار ويرى نفسه خيراً منه.

العلاج في سدِّ مداخل الشيطان:

فإن قلت: فما العلاج في دفع الشيطان ؟

فاعلم أن علاج القلب في ذلك: سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة, لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى, وتطهيره من الصفات المذمومة فإن أردت الخلاص من الشيطان فقدّم الاحتماء بالتقوى ثم أردفه بدواء الذكر يفرُّ الشيطان منك ولذلك قال وهب بن منبه اتق الله, ولا تسب الشيطان في العلانية وأنت صديقه في السرّ أي: أنت مطيع له وقيل: يا عجباً لمن يعصى المحسن بعد معرفته بإحسانه, ويطيع اللعين بعد معرقته بطغيانه.

الخلق الحسن صفة سيد المرسلين, وأفضل أعمال الصديقين, والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة, والمهلكات الدامغة, والمخازى الفاضحة, والرذائل الواضحة, والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين, المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين.

والأخلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحة من القلب إلى نعيم الجنان, وجوار الرحمن, والأخلاق الخبيثة أمراض القلوب وأسقام النفوس.

فضيلة حسن الخلق ومذمة سوء الخلق:

قال الله تعالى لنبيه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه: (وإنك لعلى خلق عظيم) [القلم: ٤] وقالت عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم خلقه القرآن. وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال صلى الله عليه وسلم: (أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسن الخلق) وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني, فقال : (اتق الله حيثما كنت, وأتبع السيئة الحسنة تمحها, وخالق الناس بخلق حسن) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (اللهم حسنت خلقي, فحسن خُلقي)

قال الحسن: من ساء خلقه عذب نفسه.

وقال أنس بن مالك: إن العبد ليبلغ بحسن خلقه أعلى درجة في الجنة وهو غير عابد, ويبلغ بسوء خلقه أسفل درك في جهنم وهو عابد.

وقال يحيى بن عاذ: في سعة الأخلاق كنوز الأرزاق.

وصحب ابن المبارك رجلاً سيء الخلق في سفر, فكان يحتمل منه, ويداريه, فلما فارقه بكى, فقيل له في ذلك, فقال: بكيته رحمة له, فارقته وخلقه معه لم يفارقه.

بيان حقيقة حسن الخلق وسوء الخلق

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حسن الخلق في ثلاث خصال: اجتناب المحارم, وطلب الحلال, والتوسعة على العيال.

وقال الحسن: حسن الخلق: بسط الوجه, وبذل الندى, وكف الأذى.

أمهات الأخلاق أصولها أربعة: الحكمة, والشجاعة, والعفة, والعدل.

ونعنى بالحكمة: حالة للنفس بها يدرك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختيارية

ونعنى بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها على مقتضى الحكمة, وتضبطها في الاسترسال والانقباض على حسب مقتضاها.

ونعى بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها.

ونعنى بالعفة تأديب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدر الأخلاق الجميلة كلها.

إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير, وجودة الذهن, وثقابة الرأي

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار

وأما خلق العفة فيصدر منه السخاء والحياء والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والمساعدة والظرف وقلة الطمع.

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة...والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم, والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه....وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً.

قبول الأخلاق للتغير بالرياضة:

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة, والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق, فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره, ونقصه, فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغيرها فإن الطباع لا تتغير.

فنقول: لو كانت الأخلاق لا تقبل التغير, لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ...وكيف ينكر هذا في حق الأدمي, وتغيير خلق البهيمة ممكن, إذ ينقل الباري من الاستحياش إلى الإنس, والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية, والفرس من الجماح إلى السلامة والانقياد, وكل ذلك تعيير للأخلاق.

الأسباب التي ينال به حسن الخلق:

الأول: جود إلهي, وكمال فطري, بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل, حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب فيصير عالماً بغير تعليم مؤدباً من غير تأديب

الثاني: اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة, وأعنى حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب

الثالث: مشاهدة أرباب الفعال الحميدة, ومصاحبتهم, وهم قرنا الخير, وإخوان الصلاح, إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً.

فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً فهو في غاية الفضيلة.

ومن كان رذلاً بالطبع, واتفق له قرناء السوء, فتعلم منهم, وتيسرت له أسباب الشر, حتى اعتادها فهو غاية البعد من الله عز وجل, وبين الرتبتين من اختلفت فيه من هذه الجهات, ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صورته وحالته.

الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرذيلة عنها, وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة لها, مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه, وكسب الصحة له, وجلبها إليه, وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشو والتربية بالغذاء, فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال, وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم. وكما أن العلة المغيرة لاعتدال البدن الموجبة للمرض, لا تعالج إلا بضدها, فإن كانت من حرارة فبالبرودة. وإن كانت من برودة فبالحرارة, فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب, علاجها بضدها, فيعالج مرض الجهل بالتعلم, ومرض البخل بالتسخي, ومرض الكبر بالتواضع, ومرض الشره بالكف عن المشتهى تكلفاً.

وكما أنه لا بد من الاحتمال لمرارة الدواء, وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة, فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة, والصبر لمداوة مرض القلب بل أولى. فإن مرض البدن يخلص منه بالموت, ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت.

الطرق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه:

اعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبده خيراً بصره بعيوب نفسه, فمن كانت له بصيرة نافذة لم تخف عليه عيوبه, فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج, فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله طرق:

الأول: أن يطلب صديقاً صدوقاً ديناً فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبه عليه.

الثاني: أن يستفيد معرفة عيوبه من ألسنة أعدائه فإن عين السخط تبدى المساوي.

الثالث: أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه

علامات حسن الخلق:

اعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه, فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ربما ظن بنفسه أنه هذب نفسه وحسن خلقه واستغنى عن المجاهدة, فلابد من إيضاح علامة حسن الخلق, فإن حسن الخلق هو الإيمان, وقد ذكر الله صفات المؤمنين في كتابه, وهي بجملتها حسن الخلق, فلنورد جملة من ذلك لتعلم آية حسن الخلق. قال الله تعالى: (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون) [المؤمنون:١_٢] إلى قوله (أولئك هم الوارثون) [المؤمنون:١٠] وقال عز وجل: (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين) [التوبة:١١٢] وقال عز وجل: (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم) [الأنفال:٢-٣_٤] وقال تعالى: (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) [الفرقان: ٦٣] إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليه حاله, فليعرض نفسه على هذه الآيات, فوجود جميع الصفات علامة حسن الخلق, وفقد جميعها علامة سوء الخلق, ووجود بعضها دون بعض, يدل على البعض دون البعض, فليشتغل بتحصيل ما فقده, وحفظ ما وجده.

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن بصفات كثيرة, وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق, فقال عليه الصلاة والسلام: (المؤمن يحب لأخيه ما يحب لنفسه) وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر, فليكرم ضيفه)

وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر, فليكرم جاره) وقال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت) وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخلق, فقال صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً) وقال: (من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن) وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال: هو أن يكون كثير الحياء, قليل الأذى, كثير الصلاح, صدوق اللسان, قليل الكلام, كثير العمل, قليل الزلل, قليل الفضول, براً, وصولاً, صبوراً, شكوراً, رضياً, حليماً, رفيقاً, عفيفاً شفيقاً, لا لعاناً, ولا ساباً, ولا نماماً, ولا مغتاباً, ولا عجولاً, ولا حقوداً, ولا بخيلاً, ولا حسوداً, بشاشاً, هشاشاً, يحب في الله, ويبغض في الله, ويرضى في الله, ويبغض في الله, فهذا هو حسن الخلق.

رياضة الصبيان وتأديبهم وتحسين أخلاقهم:

الصبي أمانة عند والديه, وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة, خالية من كل نقش وصورة, وهو قابل لكل ما نقش, ومائل إلى كل ما يمال به إليه, فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة, وشاركه في ثوابه أبوه وكل معلم له ومؤدب وإن عود الشر وأهمل شقي وهلك, وكان الوزر في رقبة القيم عليه, والوالي له.

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فلأن يصونه عن نار الآخرة أولى, وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق, ويحفظه من قرناء السوء, ولا يعوده التنعم, ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية, فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك.

والصبي...إذا كان يستحى, ويترك بعض الأفعال, حتى يرى بعض الأفعال قبيحاً, فهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق, وصفاء القلب, ومبشر بكمال العقل عند البلوغ.

وأول ما يغلب عليه من الصفات: شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه, وأن يقول: بسم الله عند أخذه, وأن يأكل مما يليه, وأن لا يبادر إلى الطعام قبل غيره, وأن لا يحدق النظر إلى من يأكل, وأن لا يسرع في الأكل.

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عودوا التنعم والرفاهية, ولبس الثياب الفاخرة.

والصبي إذا أهمل في ابتداء نشوه خرج في الأغلب ردئ الأخلاق, كذاباً, حسوداً, سروقاً, نماماً, لحوحاً, ذا فضول, وضحك, وكيد, ومجانة, وإنما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب, ثم يشغل في المكتب, فيتعلم القرآن, وأحاديث الأخبار, وحكايات الأبرار وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين, ويُحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله, ويُحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع, فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذر الفساد.

ثم مهما ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه, ويجازي عليه بما يفرح به, ويمدح بين أظهر الناس, فإن خالف في ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه, ولا يهتك ستره...ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه, فإن إظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة, فعند ذلك إن عاد ثانياً فينبغي أن يعاتب سراً, ويعظم الأمر فيه, ويقال: إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا, ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح, ويسقط وقع الكلام من قلبه, وليكن الأب حافظاً هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً, والأم تخوفه بالأب, وتزجره عن القبائح.

ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والداه, ويمنع أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له, وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء.

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب, بحيث لا يتعب في اللعب, فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه, ويبطل ذكاءه, وينغص عليه العيش, حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً.

وينبغي أن يعلم طاعة والديه, ومعلمه, ومؤدبه, ومن هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي, وأن يترك اللعب بين أيديهم.

ومهما بلغ سن التميز, فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة, ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان, ويجنب لبس الديباج والحرير والذهب, ويعلم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع.

ويخوف من السرقة, وأكل الحرام, ومن الخيانة, والكذب, والفحش, وكل ما يغلب على الصبيان.

فإذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور, فيذكر له أن الأطعمة أدوية, وإنما المقصود منها أن يقوى الإنسان بها على طاعة الله عز وجل, وأن الدنيا كلها لا بقاء لها, وأن الموت يقطع نعيمها, وأنها دار ممر لا دار مقر, وأن الآخرة دار مقر لا دار ممر, وأن الموت منتظر في كل ساعة, وأن الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة, حتى تعظم درجته عند الله تعالى, ويتسع نعيمه في الجنان, فإذا كان النشو صالحاً كان هذا الكلام عند البلوغ واقعاً مؤثراً ناجعاً, يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر.

وإن وقع النشو بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس, والتزين والتفاخر, نبا قلبه عن قبول الحق

كتاب شهوة البطن

ذم الشبع:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن يأكل في معي واحد, والمنافق يأكل في سبعة أمعاء) أي: يأكل سبعة أضعاف ما يأكل المؤمن, أو تكون شهوته سبعة أضعاف شهوته.

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: (أطول الناس جوعاً يوم القيامة أكثرهم شبعاً في الدنيا)

وقال عمر رضي الله عنه: إياكم والبطنة, فإنها ثقل في الحياة, ونتن في الممات.

وقال لقمان لابنه: يا بني, إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة, وخرست الحكمة, وقعدت الأعضاء عن العبادة.

فوائد قلة الأكل:

الفائدة الأولى: صفاء القلب, وإيقاد القريحة, وإنفاذ البصيرة, فإن الشبع يورث البلادة, والصبي إذا أكثر الأكل, بطل حفظه, وفسد ذهنه, وصار بطئ الفهم والإدراك

الفائدة الثانية: رقة القلب, الذي به يتهيأ لإدراك لذة التأثر بالذكر, فكم من ذكر يجري على اللسان, ولكن القلب لا يلتذ به, ولا يتأثر حتى كأن بينه وبينه حجاباً من قسوة القلب, وقد يرق في بعض الأحوال فيعظم تأثره بالذكر, وتلذذه بالمناجاة, وخلو المعدة هو السبب الأظهر فيه.

الفائدة الثالثة: الانكسار والذل, وزوال البطر والفرح والأشر, الذي هو مبدأ الطغيان, والغفلة عن الله تعالى.

الفائدة الرابعة: أن لا ينسى بلاء الله وعذابه, ولا ينسى أهل البلاء, فإن الشبعان ينسى الجائع, وينسى الجوع, والعبد الفطن لا يشاهد بلاء من غيره إلا ويتذكر بلاء الآخرة.

الفائدة الخامسة: وهي من أكبر الفوائد, كسر شهوات المعاصي كلها, والاستيلاء على النفس الأمارة بالسوء, فإن منشأ المعاصي كلها الشهوات والقوى, ومادة القوى والشهوات لا محالة الأطعمة, فتقليلها يضعف كل شهوة وقوة.

الفائدة السادسة: دفع النوم, فإن من شبع شرب كثيراً, ومن كثر شربه كثر نومه, والنوم موت فتكثيره ينقص العمر, ثم فضيلة التهجد لا تخفى, وفي النوم فواتها, ومهما غلب النوم فإن تهجد لم يجد حلاوة العبادة.

الفائدة السابعة: تيسير المواظبة على العبادة.

الفائدة الثامنة: يستفيد من قلة الأكل صحة البدن, ودفع الأمراض, فإن سببها كثرة الأكل, وحصول فضلة الأخلاط في المعدة والعروق. ثم المرض يمنع من العبادات, ويشوش القلب, ويمنع من الذكر والفكر, وينغص العيش.

الفائدة التاسعة: خفة المؤنة, فإن من تعود قلة الأكل كفاه من المال قدر يسير, والذي تعود الشبع صار بطنه غريماً ملازماً له.

الفائدة العاشرة: أن يتمكن من الإيثار والتصدق بما فضل من الأطعمة على اليتامى والمساكين, فيكون يوم القيامة في ظل صدقته, كما ورد به الخبر.

فهذه عشر فوائد, يتشعب من كل فائدة فوائد, لا ينحصر عددها ولا تتناهى فوائدها.

كتاب آفات اللسان

اللسان من النعم العظيمة, صغير جرمه, عظيم طاعته وجرمه, رحب الميدان ليس له مرد, ولا لمجاله منتهى وحدّ, له في الخير مجال, وله في الشر ذيل سحب, فمن أطلق عذبة اللسان وأهمله مرخى العنان, سلك به الشيطان في كل ميدان, وساقه إلى شفا جرف هار, إلى أن يضطره إلى البوار, ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم, ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع, فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة, ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله.

عظيم خطر اللسان:

خطر اللسان عظيم, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمسك عليك لسانك, وليسعك بيتك, وبكِ على خطيئتك) وقال عليه الصلاة والسلام: (من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة) وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يدخل النار, فقال: (الفم والفرج)

قال معاذ بن جبل: قلت يا رسول الله: أنؤاخذ بما نقول ؟ قال: ثكلتك أمك, يا بن جبل, وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟)

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يشير إلى لسانه, ويقول: هذا الذي أوردني المهالك.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: والله الذي لا إله إلا هو, ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان.

وقال طاوس: لساني سبع إن أرسلته أكلني.

وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه.

الكلام فيما لا يعنيك:

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك....ولا تتكلم بما أنت نستغن عنه, ولا حاجة بك إليه, فإنك مضيع به زمانك, ومحاسب على عمل لسانك, وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير, لأنك لو....هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته, لكان خيراً لك, فكم من كلمة يبنى بها قصراً في الجنة ؟ ومن قدر أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لا ينتفع بها كان خاسرا خسرنا مبيناً. وهذا مثال من ترك ذكر الله تعالى, واشتغل بمباح لا يعنيه, فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)

وقال مجتهد: سمعت ابن عباس يقول: لا تتكلم فيما لا يعنيك, فإنه فضل, ولا آمن عليك الوزر. وقيل للقمان الحكيم: ما حكمتك ؟ قال: لا أسأل عما كفيت, ولا أتكلف ما لا يعنيني. وقال مورق العجلي: أمر أنا في طلبه منذ عشرين سنة, لم أقدر عليه, ولست بتارك طلبه, قالوا: وما هو ؟ قال: السكوت عما لا يعنيني.

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم, ولم تستضر به في حال و لا مال, مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك, وما رأيت فيها من جبال وأنهار, وما وقع لك من الوقائع, وما استحسنته من الأطعمة والثياب, وما تعجبت منه. فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم, ولم تستضر.

ومن جملتها: أن تسأل غيرك عما لا يعنيك, فأنت بالسؤال مضيع وقتك, وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع.

والعلاج أن يعلم أن الموت بين يديه, وأنه مسئول عن كل كلمة, وأن أنفاسه رأس ماله, وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه.

فضول الكلام:

فضول الكلام...مذموم, وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني, والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة. فإن من يغنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر, ومهما تأتى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين, فالثانية فضول, أي: فضل عن الحاجة, وهو أيضاً مذموم _ لما سبق _ وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر. قال عطاء بن رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام, وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى, وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم, أو أمرا بمعروف, أو نهياً عن منكر, أو أن تنطق بحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها, أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد, ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد, أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره, كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه.

واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر, بل المهم محصور في كتاب الله تعالى, قال الله عز وجل: (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروفٍ أو إصلاح بين الناس) [النساء:١١٤]

وقال ابن مسعود: أنذركم فضول كلامكم, حسب امرئ من الكلام ما بلغ به حاجته

وقال الحسن: ابن آدم بسطت لك صحيفتك, ووكل بها ملكان كريمان, يكتبان أعمالك, فاعمل ما شئت وأكثر وأقلّ.

وقال إبراهيم التيمي: إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم, وإلا أمسك, والفاجر إنما لسانه رسلا, رسلا.

وقال الحسن: من كثر كلامه كثر كذبه, ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه.

الخوض في الباطل:

وهو الكلام في المعاصي, كحكاية أحوال النساء, ومجالس الخمر, ومقامات الفساق, وتنعم الأغنياء, وتجبر الملوك, ومراسمهم المذمومة, وأحوالهم المكروهة, فإن كل ذلك بما لا يحل الخوض فيه, وهو حرام.

ومن يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها, فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها, فقد قال بلال بن الحارث: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ بها ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة, وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله, ما يظن أن تبلغ به ما بلغت, فيكتب الله عليه سخطه إلى يوم القيامة.) وكان علقمة يقول: كم من كلام منعنيه حديث بلاب بن الحارث.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقى لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة.

وقال سلمان: أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله.

وقال ابن سيرين: كان رجل من الأنصار يمر بمجلس لهم, فيقول: توضئوا, فإن بعض ما تقولون شر من الحدث.

فهذا هو الخوض بالباطل, ويدخل فيه: حكاية ما جرى بين من قتال الصحابة, على وجه يوهم الطعن في بعضهم. وكل هذا باطل, والخوض فيه خوض في الباطل, نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه.

المراء والجدال:

وهو منهي عنه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل)

قال مسلم بن يسار: إياكم والمراء فإنه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقال مالك بن أنس رحمه الله: ليس هذا الجدال من الدين في شيء. وقال: المراء يقسي القلوب, ويورث الضغائن. وقال لقمان يا بني, لا تجادل العلماء فيمقوتك. وقال بلال بن سعد: إذا رأيت الرجل لجوجاً مارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته.

وحدّ المراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه, إما في اللفظ, وإما في المعنى, وإما في قصد المتكلم. وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض, فكل كلام سمعته فإن كان حقاً فصدّق به, وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه. وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه, وتنقيصه بالقدح في كلامه, ونسبته إلى القصور والجهل فيه.

وينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة, وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة لا بطريق الجدال.

وأما الباعث على هذا فهو الترفع بإظهار العلم والفضل, والتهجم على الغير بإظهار نقصه. وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتان لها. وأما علاجه: فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار نفسه. وكل من اعتاد المجادلة مدة, وأثنى الناس عليه, ووجد لنفسه بسببه عزاً وقبولاً, قويت فيه هذه المهلكات, ولا يستطيع عنها نزوحاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل, وآحاد هذه الصفات يشق مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟

الخصومة:

وهي أيضاً مذمومة, والخصومة لجاج في الكلام ليستوفي به مال, أو حق مقصود, وذلك تارة يكون ابتداء, وتارة يكون اعتراضاً.

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)

فإن قلت: إذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه, فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل, والذي يخاصم بغير علم. فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة, ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً, فإن ضبط اللسان في الخصومة على حد الاعتدال متعذر, والخصومة توغر الصدر, وتهيج الغضب, وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه, وبقى الحقد بين المتخاصمين, حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته, ويطلق اللسان في عرضه, فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات, وأقل ما فيه تشويش خاطره, حتى إنه في صلاته, يشتغل بمحاجة خصمه, فلا يبقى الأمر على حد الواجب. فالخصومة مبدأ كل شر, وكذا المراء والجدال, فينبغي إلا يفتح بابه إلا لضرورة, وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة, وذلك متعذر جداً, فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم, ولا تذم خصومته, إلا أنه إن كان مستغنياً عن الخصومة فيما خاصم فيه, لأن عنده ما يكفيه, فيكون تاركاً للأولى, ولا يكون أثماً, نعم أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام, وما ورد فيه من الثواب.

التقعر في الكلام:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أبغضكم إلى وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون, المتفيهقون, المتشدقون في الكلام) وقال فاطمة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم, يأكلون ألوان الطعام, ويلبسون ألوان الثياب, ويتشدقون في الكلام.)

وقال عمر رضي الله عنه: شقائق الكلام من شقائق الشيطان.

التقعر في الكلام بالتشدق, وتكلف السجع والفصاحة, كل ذلك من المذموم, ومن التكلف الممقوت...فينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده, ومقصود الكلام التفهيم للغرض, وما وراء ذلك تصنع مذموم, ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير, من غير إفراط أو إغراب, فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها...فلرشاقة اللفظ تأثير فيه, فهو لائق به.

الفحش وبذاءة اللسان:

وهو مذموم منهي عنه, ومصدره الخبث واللؤم, قال صلى الله عليه وسلم: (إياكم والفحش, فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش) وقال عليه الصلاة والسلام: (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذي)

فأما حده وحقيقته فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة, وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع, وما يتعلق به, فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها, وأهل الصلاح يتحاشون عنها, بل يكنون عنها.

والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء, وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق, وأهل الخبث واللؤم.

المزاح:

وأصله مذموم منهي عنه, إلا قدراً يسيراً يستثنى منه, فإن قلت: المزاح فيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه ؟ فاعلم أن المنهي عنه الإفراط فيه, أو المداومة عليه. أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه, واللعب مباح, ولكن المواظبة عليه مذمومة, وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك, وكثرة الضحك تميت القلب, وتورث الضغينة في بعض الأحوال, وتسقط المهابة والوقار. فما يخلو من هذه الأمور فلا يذم, كما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً.) إلا أن مثله يقدر أن يمزح, ولا يقول إلا حقاً, وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يُضحك الناس كيفما كان.

فإن قلت: قد نقل المزاح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فكيف ينهى عنه ؟ فأقول: إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه, وهو أن تمزح, ولا تقول إلا حقاً, ولا تؤذي قلباً, ولا تفرط فيه, وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليك.

الشعر:

الشعر كلامه حسنه حسن, وقبيحه قبيح, إلا أن التجرد له مذموم, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً حتى يريه, خير له من أن يمتلئ شعراً.)

وسئل بعضهم عن شيء من الشعر, فقال: اجعل مكان هذا ذكراً, فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة فإنشاء الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره.

اللعن:

إما لحيوان أو جماد أو إنسان, كل ذلك مذموم, قال صلى الله عليه وسلم : (لا تلاعنوا بلعنة الله ولا بغضبه ولا بجهنم) واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى, وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل, وهو الكفر والظلم, بأن يقول: لعنة الله على الظالمين وعلى الكافرين.

السب:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سباب المؤمن فسوق, وقتاله كفر) وقال أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أوصني, فقال: (عليك بتقوى الله, وإن أمرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك, فلا تعيره بشيء فيه, يكن وباله عليه, وأجره لك, ولا تسبن شيئاً) قال: فما سببت شيئاً بعد.

السخرية والاستهزاء:

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال تعالى: (أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قومٍ عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساءٍ عسى أن يكن خيراً منهن) [الحجرات:١١] ومعنى السخرية: الاستهانة والتحقير, والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه, وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول, وقد يكون بالإشارة والإيماء.

إفشاء السر:

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف, قال عليه الصلاة والسلام: (إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة) وهو حرام إذا كان فيه إضرار, ولؤم إن لم يكن فيه إضرار. قال الحسن: إن من الخيانة أن تحدث بسر أخيك.

الوعد الكاذب:

فإن اللسان سباق إلى الوعد, ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء, فيصير الوعد خلفاً, وذلك من أمارات النفاق, قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) [المائدة:١] وكان ابن مسعود لا يعد وعداً, إلا ويقول: إن شاء الله. وهو الأولى.

ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بدَّ من الوفاء إلا أن يتعذر, فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي, فهذا هو النفاق, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أربع من كن فيه كان منافقاً, ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق حتى يدعها, إذا حدث كذب, وإذا وعد أخلف, وإذا عاهد غدر, وإذا خاصم فجر) وهذا ينزل على عزم الخلف, أو ترك الوفاء من غير عذر.

الكذب في القول واليمين:

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً) وقال عليه الصلاة والسلام: (من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين)

وقال صلى الله عليه وسلم (إن التجار هم الفجار) فقيل: يا رسول الله, أليس الله قد أحل البيع ؟ قال: (نعم, ولكنهم يحلفون فيأثمون, ويحدثون فيكذبون) وقال صلى الله عليه وسلم: (ويل للذي يحدث فيكذب, ليضحك به القوم, ويل له, ويل له) وقال عليه الصلاة والسلام: (من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرئ مسلم بغير حق, لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان)

قال علي رضي الله عنه: أعظم الخطايا عند الله: اللسان الكذوب.

قال عمر بن عبدالعزيز: والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه.

الغيبة:

قد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه, وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة, فقال تعالى: (ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتُمُوهُ) [الحجرات:١٢] وقال عليه الصلاة والسلام: (كل المسلم على المسلم حرام, دمه, وماله, وعرضه) وقال صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تفاحشوا ولا تدابروا, ولا يغتب بعظكم بعضاً, وكونوا عباد الله إخواناً) وقال عليه الصلاة والسلام: (مررت ليلة أسري بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم, فقلت: يا جبريل من هؤلاء ؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم)

قال عمر رضي الله عنه: عليكم بذكر الله تعالى فإنه شفاء, وإياكم وذكر الناس فإنه داء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوب نفسك. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: يبصر أحدكم القذى في عين أخيه, ولا يبصر الجذع في عين نفسه. وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يعدرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة, ولكن في الكف عن أعراض عن الناس.

حدّ الغيبة:

اعلم أن حدَّ العيبة أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه, سواء ذكرته بنقص في بدنه, أو نسبه, أو في خلقه, أو في فعله, أو في قوله, أو في دينه, أو في دنياه, حتى في ثوبه وداره ودابته.

واعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأنه فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه, فالتعريض به كالتصريح, والفعل فيه كالقول, والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة, وكل ما يفهم فهو داخل في الغيبة وهو حرام.

البواعث على الغيبة:

الأول: أن يشفي الغيظ, وذلك أنه إذا جرى سبب غضب به عليه, فإنه إذا هاج غضبه يشفيه بذكر مساويه, فيسبق لسانه إليه بالطبع إن لم يكن ثمّ دين وازع, وقد يمتنع الغيظ عند الغضب, فيحتقن الغضب في الباطن, فيصير حقداً ثابتاً, فيكون سبباً دائماً لذكر المساوي, فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة.

الثاني: موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء, ومساعدتهم على الكلام, فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض, فيرى أنه لو أنكر عليهم استثقلوه, ونفروا منه, فيساعدهم ويرى أن ذلك من حسن العشرة, ويظن أنه مجاملة في الصحبة.

الثالث: أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده, ويطول لسانه عليه, أو يقبح حاله عند محتشم, أو يشهد عليه بشهادة, فيبادره قبل أن يقبح هو حاله, ويطعن فيه.

الرابع: أن ينسب إلى شيء, فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله, وكان من حقه أن يبرئ نفسه, ولا يذكر الذي فعل.

الخامس: إرادة التصنع والمباهاة, وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره, فيقول فلان جاهل, وفهمه ركيك, وكلامه ضعيف. وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه.

السادس: الحسد: وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه, ويحبونه ويكرمونه, فيريد زوال تلك النعمة عنه, فلا يجد سبيلاً إليه إلا القدح فيه.

السابع: اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك, فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة.

الثامن: السخرية والاستهزاء, استحقاراً له, فإن ذلك يجرى في الحضور, وفي الغيبة. ومنشؤه التكبر.

علاج الغيبة:

أن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة, فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه, فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه, وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل, ومشبه عنده بآكل الميتة, بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته, وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان, ويدخل بها النار. وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله, وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب.

الأعذار المرخصة في الغيبة:

الأول: التظلم, فالمظلوم له أن يتظلم إلى السلطان, إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به, قال عليه الصلاة والسلام: (إن لصاحب الحق مقالاً)

الثاني: الاستعانة على تغير المنكر, ورد العاصي إلى منهج الصلاح.

الثالث: الاستفتاء كما يقول للمفتي: ظلمني أبي, أو زوجتي, أو أخي, فكيف طريقي في الخلاص ؟

الرابع: تحذير المسلم من الشر, فإذا رأيت فقهياً يتردد إلى مبتدع, أو فاسق, وخفت أن تتعدى إليه بدعته, وفسقه, مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق, لا غيره.

الخامس: أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه, كالأعرج, والأعمش, فلا إثم على من يقول: روى أبو الزناء عن الأعرج, وسلمان عن الأعمش.

السادس: أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب المخور والمجاهر بشرب الخمر, بحيث لا يستنكف من أن يذكر به, فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك

النميمة:

قال الله تعالى: (ويل لكل همزةٍ لمزةٍ) [الهمزة:١] قيل الهمزة: النمام.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة نمام)

حدّ النميمة:

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينمّ قول الغير إلى المقول فيه, كما تقول: فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا, وليست النميمة مختصة به, بل حدها كشف ما كره كشفه, سواء كرهه المنقول عنه, أو المنقول إليه, أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول, أو بالكتابة, أو بالرمز, أو بالإيماء, وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال.

ما يجب على من نقلت إليه النميمة:

كل من حملت إليه النميمة, وقيل له: إن فلانا قال فيك كذا وكذا, فعليه ستة أمور:

الأول: أن لا يصدقه, لأن النمام فاسق, وهو مردود الشهادة, قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالةٍ) [الحجرات:٦]

الثاني: أن ينهاه عن ذلك, وينصح له, ويقبح عليه فعله, قال الله تعالى: (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر) [لقمان:١٧]

الثالث: أن يبغضه في الله تعالى, فإنه بغيض عند الله تعالى, ويجب بغض من يبغضه الله

الرابع: أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى: (اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم) [الحجرات:١٢]

الخامس: أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس, والبحث للتحقق, اتباعاً لقول الله تعالى: (ولا تجسسوا) [الحجرات:١٢]

السادس: أن لا ترضي لنفسك ما نهيت النمام عنه, فلا تحكى نميمته فتقول: فلان قد حكى لي كذا وكذا, فتكون به نماماً ومغتاباً, وتكون قد أتيت ما عنه نهيت.

ذكر أن حكيماً زاره بعض إخوانه فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه فقال له: قد أبطأت في الزيارة, وأتيت بثلاث جنايات: بغضت أخي إلي, وشغلت قلبي الفارغ, واتهمت نفسك الأمينة.

قال بعضهم: النميمة مبنية على الكذب والحسد والنفاق وهي أثافي الذل

كلام ذي اللسانين:

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعادين, ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كان له وجهان في الدنيا, كان له لسانان من نار يوم القيامة) وقال عليه الصلاة والسلام: (تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين, الذي يأتي هؤلاء بحديث, وهؤلاء بحديث.)

المدح:

والمدح يدخله ست آفات, أربع في المادح, واثنتان في الممدوح. فأما المادح:

فالأولى: أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب.

الثانية: أنه قد يدخله الرياء, فإنه بالمدح مُظهر للحب.

الثالثة: أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه.

الرابعة: أنه قد يفرح الممدوح, وهو ظالم أو فاسق, وذلك غير جائز.

وأما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان.

الثاني: أنه إذا أثنى عليه الخير فرح به, وفتر ورضي عن نفسه, وقل تشميره.

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

الغضب شعلة نار, ويستكبرها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد, كاستخراج الحجر النار من الحديد, ومن نتائج الغضب: الحقد, والحسد, وبهما هلك من هلك, وفسد من فسد. وإذا كان الحقد والحسد والغضب, مما يسوق العبد إلى مواطن العطب, فما أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساويه ! ليحذر ذلك ويتقيه, ويميطه عن القلب إن كان وينفيه, ويعالجه إن رسخ في قلبه ويداويه, فإن من لا يعرف الشر يقع فيه, ومن عرفة فالمعرفة لا تكفيه, ما لم يعرف الطريق الذي به يدفع الشر ويقصيه.

الغضب:

عن عكرمة في قوله تعالى: (وسيداً وحصوراً) [آل عمران:٣٩] قال: السيد الذي لا يغلبه الغضب

روى أبو هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله, مرني بعمل وأقلل, فقال: (لا تغضب) ثم أعاد عليه, فقال: (لا تغضب) وقال عليه الصلاة والسلام: (ليس الشديد بالصرعة, وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)

وقال سليمان بن داود عليهما السلام: يا بني, إياك وكثرة الغضب, فإن كثرة الغضب تستخف فؤاد الرجل الحليم.

قال بعضهم: إياك والغضب, فإنه يصيرك إلى ذلة الاعتذار.

قيل لعبدالله بن المبارك: أجمل لنا حسن الخلق في كلمة. قال: لا تغضب.

وقد قيل: الغضب عدو العقل, والغضب غول العقل.

قيل لحكيم: ما أملك فلانا لنفسه ! قال: إذا لا تذله الشهوة, ولا يصرعه الهوى, ولا يغلبه الغضب.

حقيقة الغضب ودرجاته:

قوة الغضب محلها القلب, ومعناها غليان دم القلب بطلب الانتقام, والناس في هذه القوة على درجات ثلاث, من: التفريط, والإفراط, والاعتدال.

أما التفريط: فبفقد هذه القوة أو ضعفها, وذلك مذموم, وهو الذي يُقال فيه: إنه لا حمية له. ولذلك قال الشافعي رحمه الله: من استغضب فلم يغضب فهو حمار.

وأما الإفراط: فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار.

وسبب غلبته أمور غريزية, وأمور اعتياديه, فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب, حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان, ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب, لأن الغضب من النار. وأما الأسباب الاعتيادية: فهو أن يخالط قوما يتبجحون بتشفي الغيظ, وطاعة الغضب, ويسمون ذلك شجاعة ورجولة.

ومن آثار هذا الغضب في الظاهر: تغير اللون, وشدة الرعدة في الأطراف, وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام, واضطراب الحركة والكلام, حتي يظهر الزبد على الأشداق, وتحمر الأحداق, وتنقلب المناخر, وتستحيل الخلقة, ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه, حياء من قبح صورته, واستحالة خلقته, وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره, فإن الظاهر عنوان الباطن.

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحيى منه ذو العقل. ويستحيى منه قائله عند فتور الغضب.

وأما أثره على الأعضاء فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن.

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه فالحقد والحسد وإضمار السوء.

فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة, وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله, فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى لإفراط حتى جره إلى التهور, واقتحام الفواحش, فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب, ويقف على الوسط بين الطرفين, فهو الصراط المستقيم, فإن عجز عنه فليطلب القرب منه, فليس كل من عجز عن الاتيان بالخير كله, ينبغي أن يأتي بالشر, ولكن بعض الشر أهون من بعض, وبعض الخير أرفع من بعض, فهذه حقيقة الغضب, ودرجاته, نسال الله حسن التوفيق لما يرضيه.

بيان الأسباب المهيجة للغضب وطرق علاجها:

الأسباب المهيجة للغضب: الزهو, والعجب, والمزاح, والمماراة, والغدر, وشدة الحرص على فضول المال والجاه, وهي بأجمعها أخلاق رديئة, ومذمومة شرعاً, ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب فلا بد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها وكل خلق من هذه الأخلاق, وصفة من هذه الصفات, يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة, والمواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس, فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل, وتخلصت من الغضب الذي يتولد منها.

علاج الغضب بعد هيجانه:

يعالج الغضب بعد هيجانه بمعجون العلم والعمل, أما العلم فبأمور:

الأول: أن يتفكر في الأخبار في فضل كظم الغيظ, والحلم, والاحتمال, والعفو, فيرغب في ثوابه, فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي, والانتقام, وينطفئ عنه غيظه.

الثاني: أن يخوف نفسه بعقاب الله, وهو أن يقول: قدرة الله علي أعظم من قدرتي على هذا الإنسان, فلو أمضيت غضبي عليه, لم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو.

الثالث: أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام, وتشمر العدو لمقابلته, والسعي في هدم أغراضه, والشماتة بمصائبه, وهو لا يخلو من المصائب, فيخوف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة.

الرابع: أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب, بأن يتذكر صورة غيره عند الغضب.

الخامس: أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام, ويمنعه من كظم الغيظ, ولا بد أن يكون له سبب, مثل: قول الشيطان له: إن هذا يحمل منك على العجز, وصغر النفس, والذل, والمهانة, وتصير حقيراً في أعين الناس ! فيقول لنفسه: ما أعجبك !, تأنفين من الاحتمال الآن, ولا تأنفين من خزى يوم القيامة.

أما العمل: فأن تقول بلسانك: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم, فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً, واضطجع إن كنت جالساً, واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذل نفسك, واطلب بالجلوس والاضطجاع السكون, فإن سبب الغضب الحرارة, وسبب الحرارة الحركة.

فضيلة كظم الغيظ:

قال الله تعالى: (والكاظمين الغيظ) [آل عمران: ١٣٤] وذكر ذلك في معرض المدح.

وقال لقمان لابنه: يا بني, لا تذهب ماء وجهك بالمسألة, ولا تشف غيظك بفضيحتك, واعرف قدرك تنفعك معيشتك.

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ, لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم إلى تكلف الحلم, ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه, ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة, ولكن إذا تعود ذلك مدة, صار ذلك اعتياداً, فلا يهيج الغيظ, وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب, وهو الحلم الطبيعي. وهو دلالة كمال العقل, واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل.

وعن الحسن في قوله تعالى: (وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) [الفرقان:٦٣] قال: حلماء, إن جهل عليهم لم يجهلوا.

قال أبو هريرة: إن رجلاً قال: يا رسول, إن لي قرابة أصلهم ويقطعون, وأحسن إليهم ويسيئون, ويجهلون علي وأحلم عنهم. قال: (إن كان كما تقول, فكأنما تسفهم المل, ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك.) وقال عليه الصلاة والسلام: (إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله, الحلم والأناة)

وقال عمر رضي الله عنه: تعلموا العلم, وتعلموا للعلم السكينة والحلم.

وقال علي رضي الله عنه: ليس الخير أن يكثر مالك وولدك, ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك. وقال: إن أول عوض الحليم من حلمه, أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل. وقال معاوية رضي الله عنه: لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله. وقال أكثم بن صيفي: دعامة العقل الحلم, وجماع الأمر الصبر.

وقال أيوب: حلم ساعة يدع شراً كثيراً.

وقال الأحنف بن قيس: لست بحليم, ولكني أتحلم.

وقال بعض العلماء: إن الحلم أرفع من العقل, لأن الله تعالى تسمى به.

الحقد:

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجزه عن التشفي في الحال, رجع إلى الباطن, واحتقن فيه فصار حقداً. ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله, والبغضة له, والنفار عنه, وأن يدوم ذلك ويبقى. فالحقد ثمرة الغضب.

ثمار الحقد:

الحقد يثمر ثمانية أمور:

الأول: الحسد, وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه, فتغتم بنعمة إن أصابها, وتسر بمصيبة إن نزلت به.

الثاني: أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن, فتشمت بما أصابه من البلاء.

الثالث: أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه, وإن طلبك وأقبل عليك.

الرابع: وهو أن تعرضه عنه استصغاراً له.

الخامس: أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر, وهتك ستر, وغيره.

السادس: أن تحاكيه استهزاء به, وسخرية منه.

السابع: إيذاؤه بالضرب, وما يؤلم بدنه.

الثامن: أن تمنعه حقه من قضاء دين, أو صلة رحم, أو رد مظلمة, وكل ذلك حرام.

أحوال المحقود عليه عند القدرة:

الأول: أن يستوفي حقه الذي يستحقه, من غير زيادة, أو نقصان, وهو العدل.

الثاني: أن يحسن إليه بالعفو, والصلة, وذلك هو الفضل.

الثالث: أن يظلمه بما لا يستحقه, وذلك هو الجور, وهو اختيار الأراذل, والثاني هو اختيار الصديقين, والأول هو منتهى درجات الصالحين.

فضيلة العفو والإحسان:

اعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه, ويبرى عنه من قصاص أو غرامة, وهو غير الحلم وكظم الغيد, فلذلك أفردناه, قال الله تعالى: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) [الأعراف:١٩٩] وقال الله تعالى: (وأن تعفوا أقرب للتقوى) [البقرة:٢٣٧]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسل: (ثلاث والذي نفسي بيده, لو كنت حلافاً لحلفت عليهن: ما نقص مال من صدقة فتصدقوا, ولا عفا رجل عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله بها عزاً يوم القيامة, ولا فتح رجل على نفسه باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر)

سئل أبو الدرداء: عن أعزّ الناس, قال: الذي يعفو إذا قدر, فاعفوا يعزكم الله.

قال إبراهيم التيمي: إن الرجل ليظلمني فأرحمه. ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز رحمه الله, فجعل يشكو إليه رجلاً ظلمه, ويقع فيه, فقال له عمر: إنك أن تلقى الله, ومظلمتك كما هي, خير لك من أن تلقاه وقد اقتصصتها.

وقال بعضهم: ليس الحليم من ظُلِمَ فحلم, حتى إذا قدر انتقم, ولكن الحليم من ظُلِمَ فحلم, حتى إذا قدر عفا. وقال زياد: القدرة تذهب الحفيظة, يعني: الحقد والغضب.

وجلس ابن مسعود يبتاع طعاماً, فابتاع, ثم طلب الدراهم, وكانت في عمامته, فوجدها قد حلت, فقال: لقد جلست وإنها لمعي, فجعلوا يدعون على من أخذها, ويقولون: اللهم اقطع يد السارق, الذي أخذها, اللهم افعل به كذا. فقال ابن مسعود: اللهم إن كان حمله على أخذها حاجة, فبارك له فيها, وإن كان حملته جراءة على الذنب, فاجعله آخر ذنوبه.

فضيلة الرفق:

اعلم أن الرفق محمود, ويضاد العنف والحدة, والعنف نتيجة الغضب والفظاظة, والرفق واللين نتيجة حسن الخلق والسلامة, فالرفق في الأمور ثمرة لا يثمرها إلا حسن الخلق.

وقد أثني النبي صلى الله عليه وسلم على الرفق, فقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله رفيق يحب الرفق, ويعطي عليه ما لا يعطى على العنف) وقال صلى الله عليه وسلم: (من يحرم الرفق, يحرم الخير كله)

وقال عليه الصلاة والسلام: (أتدرون من يحرم على النار يوم القيامة: كل هين, لين, سهل, قريب.)

وقال بعضهم: ما أحسن الإيمان يزينه العلم, وما أحسن العلم يزينه العمل, وما أحسن العمل يزينه الرفق.

وقال عمر بن العاص لابنه عبدالله: ما الرفق ؟ فقال: تكون ذا أناة فتلاين الولاة. قال: فما الخرق ؟ قال: معاداة إمامك, ومناوأة من يقدر على ضررك.

وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة, إلا وإلى جانبها كلمة ألين منها, تجرى مجراها.

وقال الحسن: المؤمن وقاف متأن, وليس حاطب ليل.

فهذا ثناء أهل العلم على الرفق, وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال, وأغلب الأمور, والحاجة إلى العنف قد تقع ولكن على الندور, وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف, فيعطى كل أمر حقه, فإن كان قاصر البصيرة, أو أشكل عليه حكم واقعة من الوقائع, فليكن ميله إلى الرفق, فإن النجح معه في الأكثر.

الحسد:

اعلم أن الحسد من نتائج الحقد, والحقد من نتائج الغضب, فهو فرع فرعه, والغضب أصل أصله, ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحاسدوا, ولا تقاطعوا, ولا تباغضوا, ولا تدابروا, وكونوا عباد الله إخواناً) وقال عليه الصلاة والسلام: (إنه سيصيب أمتي داء الأمم) قالوا: وما داء الأمم ؟ قال: (الأشر والبطر والتكاثر, والتنافس في الدنيا, والتباعد والتحاسد, حتى يكون الغي ثم الهرج)

وقال أبو الدرداء: ما أكثر عبد ذكر الموت, إلا قلّ فرحه, وقل حسده.

وقال معاوية: كل الناس أقدر على رضاه, إلا حاسد نعمة, فإنه لا يرضيه إلا زوالها.

قال أعرابي: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد, إنه يرى النعمة عليك نقمة.

وقال الحسن: ابن آدم لم تحسد أخاك ؟ فإن كان الذي أعطاه لكرامته عليه, فلم تحسد من أكرمه الله ؟ وإن كان غير ذلك فلم تحسد من مصيره إلى النار.؟

حقيقية الحسد:

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة, فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة, فلك فيها حالتان:

إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها, وهذه الحالة تسمى حسداً.

الثانية: أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي مثلها وهذه غبطة

فأما الأول فحرام بكل حال, إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهيج الفتنة, وإفساد ذات البين, وإيذاء الخلق.

وأما المنافسة فليست بحرام, والذي يدل على إباحة المنافسة, قوله تعال: (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون) [المطففين:٢٦]

أسباب الحسد والمنافسة:

أما المنافسة فسببها حب ما فيه المنافسة, فإن كان ذلك أمراً دينياً فسببه حب الله تعالى, وحب طاعته, وإن كان دنيوياً فسببه حبّ مباحات الدنيا والتنعم بها.

والحسد المذموم مداخله كثير جداً....لكن يحصر جملتها...أسباب:

السبب الأول: العداوة والبغضاء, وهذ أشد أسباب الحسد, فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب, وخالفه في غرض بوجوه من الوجوه, أبغضه قلبه, وغضب عليه, ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي التشفي والانتقام,...والحسد بسبب البغض.

السبب الثاني: الكبر, وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره, ويستخدمه, ويتوقع منه الانقياد له, والمتابعة في أغراضه, فإذا نال نعمة خاف أن لا يتجمل تكبره, ويترفع عن متابعته, أو ربما تشوف إلى مساواته, أو إلى أن يرتفع عليه, فيعود مُتكبراً, بعد أن كان مُتكبراً عليه.

السبب الثالث: الخوف من فوت المقصود, وذلك يختص بمتزاحمين على مقصود واحد, ومن هذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية, وتحاسد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلة في قلب الأبوين, للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال, وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد في نيل المرتبة من قبل الأستاذ.

السبب الرابع: حب الرياسة وطلب الجاه لنفسه من غير توصل إلى مقصود, وذلك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظر في فن من الفنون,...فإنه لو سمع بنظير له في أقصى العالم لساءه ذلك, وأحبّ موته, أو زوال النعمة عنه التي بها يشاركه المنزلة

السبب الخامس: خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى.

دواء الحسد:

اعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب. ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل. والعلم النافع لمرض الحسد أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين, وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين, بل ينتفع به فيهما, ومهما عرفت هذا عن بصيرة, ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك فارقت الحسد لا محالة, أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى, وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده, وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته, فاستنكرت ذلك واستبشعته وهذا جناية على الدين وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى, وشاركت إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا, وزوال النعم, وهذه خبائث في القلب, تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب.

وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهم أنك تتألم بحسدك في الدنيا, أو تتعذب به, ولا تزال في كمد, وغم, إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم, فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها, وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم, فتبقى مغموماً, محروماً, متشعب القلب, ضيق الصدر, قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك, وتشتهيه لأعدائك, فقد كنت تريد المحنة لعدوك, فتنجزت في الحال محنتك, وغمك نقداً. ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك. ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد, لما فيه من ألم القلب مع عدم النفع, فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرض لسخط الله من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله.

وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح, لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك, بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلا بد أن يدوم ,إلى أجل غير معلوم, قدره الله سبحانه, فلا حيلة في دفعه, بل كل شيء عنده بمقدار, ولكل أجل كتاب.

ولعلك تقول: ليت النعمة كانت تزول عن المحسود بحسدي, وهذا غاية الجهل فإنه بلاء تشتهيه أولاً لنفسك, فإنك لا تخلو عن عدو يحسدك, فلو كانت النعمة تزول بالحسد لم يبق الله تعالى عليك نعمة, ولا على أحد من الخلق, ولا نعمة الإيمان أيضاً, لأن الكفار يحسدون المؤمنين على الإيمان, قال الله تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم) [البقرة:١٠٩] إذ ما يريد الحسود لا يكون, نعم هو يضلّ بإرادته الضلال لغيره.

وإن اشتهيت أن تزول النعمة عن الخلق بحسدك, ولا تزول عنك بحسد غيرك, فهذا في غاية الجهل والغباوة, فإن كل واحد من حمقى الحساد أيضاً يشتهي أن يختص بهذه الخاصية, ولست بأولى بغيرك. فنعمة الله تعالى عليك في إن لم تزل النعمة بالحسد, مما يجب عليك شكرها, وأنت بجهلك تكرهها.

وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح, أما منفعته في الدين: فهو أنه مظلوم من جهتك لا سيما إذا أخرجك الحسد إلى القول, والفعل بالغيبة, والقدح فيه وهتك ستره, وذكر مساويه, فهذه هدايا تهديها إليه. أعني أنك تهدي إليه حسناتك.

وأما منفعته في الدنيا فهو أن أهم أغراض الخلق مساءة الأعداء, وغمهم وشقاوتهم, وكونهم معذبين مغمومين, ولا عذاب أشد مما أنت فيه من ألم الحسد, وغاية أماني أعدائك أن يكونوا في نعمة, وأن تكون في غمّ وحسرة بسببهم, وقد فعلت بنفسك ما هو مرادهم.

ولذلك لا يشتهي عدوك موتك, بل يشتهي أن تطول حياتك, ولكن في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه, فينقطع قلبك حسداً.

ففرح عدوك بغمك وحسدك أعظم من فرحته بنعمته, ولو علم خلاصك من ألم الحسد وعذابه لكان ذلك أعظم مصيبة وبلية عنده, فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك, وصديق عدوك, إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والآخرة, وانتفع به عدوك في الدنيا والآخرة. وصرت مذموماً عند الخالق والخلائق, شقياً في الحال والمآل, ونعمة المحسود دائمة, شئت أم أبيت. ثم لم تقتصر على تحصيل مراد عدوك حتى وصلت إلى إدخال أعظم سرور على إبليس الذي هو أعدى أعدائك, لأنه لما رآك محروماً من نعمة العلم والورع والجاه والمال الذي اختص به عدوك عنك, خاف أن تحب ذلك له فتشاركه في الثواب بسبب المحبة, لأن من أحب الخير للمسلمين كان شريكاً في الخير, ومن فاته اللحاق بدرجة الأكابر في الدنيا لم يفته ثواب الحب لهم مهما أحب ذلك, فخاف إبليس أن تحب ما أنعم الله به على عبده من صلاح دينه ودنياه فتفوز بثواب الحب, فبغضه إليك حتى لا تلحقه بحبك كما لم تلحقه بعملك.

فهذه الأدوية العلمية فمهما تفكر الإنسان فيها بذهن صاف, وقلب حاضر, انطفأت نار الحسد من قلبه, وعلم أنه مهلك نفسه, ومفرح عدوه, ومسخط ربه, ومنغص عيشه.

فهذه هي أدوية الحسد, وهي نافعة جداً, إلا أنها مرة على القلوب جداً, ولكن النفع في الدواء المرّ. فمن لم يصبر على مرارة الدواء, لم ينل حلاوة الشفاء.

كتاب ذم الدنيا

الحمد الله الذي عرف أولياءه غوائل الدنيا وآفاتها, وكشف لهم عن عيوبها وعوراتها حتى نظروا في شواهدها وآياتها, ووزنوا بحسناتها سيئاتها, فعلموا أنه يزيد منكرها على معروفها, ولا يفي مرجوها بمخلوفها, ولكنها في صورة امرأة مليحة تستميل الناس بجمالها, ولها أسرار سوء, وقبائح تهلك الراغبين في وصالها, ثم هي فرارة عن طلابها, شحيحة بإقبالها, وإذا أقبلت لم يؤمن شرها ووبالها, إن أحسنت ساعة أساءت سنة, شأنها الهرب من طالبها, والطلب لهاربها, ومن خدمها فاتته, ومن أعرض عنها واتته, لا يخلو صفوها عن شوائب الكدورات, ولا ينفعك سرورها عن المنغصات, سلامتها تعقب السقم, وشبابها يسوق إلى الهرم, ونعيمها لا يثمر إلا الحسرة والندم, فهي خداعة مكارة, طيارة فرارة, لا تزال تتزين لطلابها حتى إذا صاروا من أحبابها, كشرت لهم عن أنيابها, فأذاقتهم قواتل سمامها, ورشقتهم بصوائب سهامها.

بينما أصحابها منها في سرور, وإنعام إذ ولت عنها كأنها أضغاث أحلام, ثم عكرت عليهم بدواهيها فطحنتهم طحن الحصيد, ووارتهم في أكفانهم تحت الصعيد.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الدنيا سجن المؤمن, وجنة الكافر)

وقال عليه الصلاة والسلام: (الدنيا ملعونة ملعون من فيها إلا ما كان لله منها)

وقال صلى الله عليه وسلم: (ألهاكم التكاثر, يقول ابن آدم: مالي, مالي, وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت, أو لبست فأبليت, أو تصدقت فأبقيت ؟)

قال الحسن رحمه الله: رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة, فأدوها إلى من ائتمنها عليها, ثم راحوا خفافاً. وقال أيضاً رحمه الله: من نافسك في دينك فنافسه, ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره.

قال لقمان لابنه: يا بني, إن الدنيا بحر عميق, وقد غرق فيه ناس كثير, فلتكن سفينتك فيه تقوى الله عز وجل, وحشوها الإيمان بالله تعالى, وشراعها التوكل على الله عز وجل, لعلك تنجو, وما أراك ناجياً. وقال: يا بني, بع دنياك بآخرتك, تربحهما جميعاً, ولا تبع آخرتك بدنياك تخسرهما جميعاً.

وقال مطرف بن الشخير: لا تنظر إلى خفض عيش الملوك, ولين رياشهم, ولكن انظر إلى سرعة ظغنهم, وسوء منقلبهم.

وقال الفضيل: لو كانت الدنيا من ذهب يفنى, والآخرة من خزف يبقى, لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى.

وقال مالك بن دينار: بقدر ما تحزن للدنيا, يخرج همّ الآخرة من قلبك, وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج همّ الدنيا من قلبك. وهذا اقتباس من كلام رضي الله عنه حيث قال: الدنيا والآخرة ضرتان, فبقدر ما ترضى إحداهما تسخط الأخرى.

وقال سعيد بن مسعود: إذا رأيت العبد تزداد دنياه, وتنقص آخرته, وهو به راض, فذلك المغبون الذي يلعب بوجهه, وهو لا يشعر.

وقال عمرو بن العاص: إياكم وما شغل من الدنيا, فإن الدنيا كثرة الأشغال, لا يفتح رجل على نفسه باب شغل إلا أوشك ذلك الباب أن يفتح عليه عشرة أبواب.

وقال أيضاً: ابن آدم يستقل ماله, ولا يستقل عمله, يفرح بمصيبته في دينه, ويجزع من مصيبته في دنياه.

وقال مالك بن دينار: اصطلحنا على حب الدنيا, فلا يأمر بعضنا بعضاً, ولا ينهى بعضنا بعضا, ولا يدعنا الله على هذا, فليت شعري أي عذاب الله ينزل علينا ؟

قيل لحكيم: الدنيا لمن هي ؟ قال: لمن تركها, فقيل: الآخرة لمن هي؟ قال: لمن طلبها

كتاب ذم البخل وذم حب المال

ذم المال وكراهة حبه:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون) [المنافقون:٩] وقال تعالى: (إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم) [التغابن:١٥] فمن اختار ماله, وولده على ما عند الله, فقد خسر وغبن خسراناً عظيماً. وقال تعالى: (ألهاكم التكاثر) [التكاثر:١]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول ابن آدم: مال, مالي, وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت, أو لبست فأبليت, أو تصدقت فأمضيت)

مدح المال والجمع بينه وبين الذم:

اعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال جل وعز: (إن ترك خيراً) [البقرة:١٨٠] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم المال الصالح للرجل الصالح) وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال, إذ لا يمكن الوصول إليهما إلا به, وقال تعالى: (ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك) [الكهف:٨٢] وقال تعالى ممتناً على عباده: (ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) [نوح:١٢]

ولا تقف على وجه الجمع بعد الذم والمدح, إلا بأن تعرف حكمة المال, ومقصوده, وآفاته, وغوائله, حتى ينكشف لك أنه خير من وجه, وشر من وجه, وأنه محمود من حيث هو خير, ومذموم من حيث هو شر, فإنه ليس بخير محض, ولا شر محض, بل هو سبب للأمرين جميعاً, وما هذا وصفه فيمدح لا محالة تارة, ويذم أخرى.

آفات المال وفوائده:

اعلم أن المال مثل حية, فيها سم وترياق, ففوائده ترياقه, وغوائله سمومه, فمن عرف غوائله وفوائده, أمكنه أن يحترز من شره, ويستدر من خيره.

الفوائد:

أما الفوائد, فهي تنقسم إلى دينية, ودنيوية, أما الدنيوية فلا حاجة إلى ذكرها, فإن معرفتها مشهورة مشتركة بين أصناف الخلق, ولولا ذلك لم يتهالكوا على طلبها, وأما الدينية فتنحصر جميعها في ثلاثة أنواع:

النوع الأول: أن ينفقه على نفسه, إما في عبادة, أو في الاستعانة على عبادة, أما في العبادة, كالاستعانة به على الحج, والجهاد, فإنه لا يتوصل إليهما إلا بالمال وأما فيما يقويه على العبادة, فذلك هو المطعم والملبس والمسكن والمنكح وضرورات المعيشة فإن هذه الحاجات إذا لم تتيسر كان القلب مصروفاً إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين.

النوع الثاني: ما يصرفه إلى الناس, وهو أربعة أقسام: الصدقة, والمروءة, ووقاية العرض, وأجرة الاستخدام.

أما الصدقة, فلا يخفى ثوابها.

وأما المروءة فنعنى بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية, وإعانة وما يجرى مجراها. وبها يكتسب الإخوان والأصدقاء, وبه يكتسب صفة السخاء.

وأما وقاية العرض, فنعنى بد بذل المال لدفع هجو الشعراء, وثلب السفهاء, وقطع ألسنتهم, ودفع شرهم.

وأما الاستخدام فالأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة, ولو تولاها بنفسه ضاعت أوقاته, وتعذر عليه سلوك سبيل الآخرة.

النوع الثالث: ما لا يصرفه إلى إنسان معين, ولكن يحصل به خير عام, كبناء المساجد, والقناطر, ودور المرضى, وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات.

الآفات:

وأما الآفات, فدينية, ودنيوية, أما الدينية فثلاث:

الأولى: أن تجر إلى المعاصي, ومهما كان الإنسان آيساً عن نوع من المعصية لم تتحرك داعيته, فإذا استشعر القدرة عليها انبعثت داعيته, والمال نوع من القدرة يحرك داعية المعاصي, وارتكاب الفجور.

الثانية: أن يجر إلى التنعم في المباحات, فيصير التنعم مألوفاً عنده, ومحبوباً, لا صبر عنه, ويجر البعض منه إلى البعض, فإذا اشتد أنسه به, ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال, فيقتحم الشبهات, ويخوض في المراء, والمداهنة, والكذب, والنفاق, وسائر الأخلاق الرديئة, لينتظم له أمر دنياه, ويتيسر له تنعمه.

الثالثة: وهي التي لا ينفعك عنها أحد, وهو أنه يلهيه إصلاح ماله عن ذكر الله تعالى, وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران.

وصاحب الضيعة يمسي ويصبح متفكراً في خصومة الفلاح ومحاسبته, وفي خصومة الشركاء ومنازعتهم, وخصومة أعوان السلطان, وخصومة الأجراء على التقصير في العمارة, وصاحب التجارة يكون متفكراً في خيانة شريكه, وانفراده بالربح, وتقصيره في العمل, وتضيعه للمال, وكذلك صاحب المواشي, وكذلك سائر أصناف الأموال فهذه جملة الآفات الدنيوية, سوى ما يقاسيه أرباب الأموال في الدنيا من الخوف والحزن والغم والهم والتعب في دفع الحساد وتجهم الصعاب في حفظ المال وكسبه فإن ترياق المال أخذ القوت منه, وصرف الباقي إلى الخيرات, وما عدا ذلك سموم وآفات

ذم الحرص والطمع, ومدح القناعة واليأس مما في أيدى الناس:

ينبغي أن يكون الفقير قانعاً منقطع الطمع عن الخلق, غير ملتفت إلى ما في أيديهم, ولا حريصاً على اكتساب المال كيف كان, ولا يمكنه ذلك إلا بأن يقنع بقدر الضرورة...فإن تشوف إلى الكثير, أو طول أمله, فاته عز القناعة, وتدنس لا محالة بالطمع, وذل الحرص, وجره الحرص والطمع إلى مساوئ الأخلاق, وارتكاب المنكرات الخارقة للمروءات, وقد جبل الآدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو كان لابن آدم واديان من ذهب, لابتغى لهما ثالثاً, ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب, ويتوب الله علة من تاب.) وقال عليه الصلاة والسلام: (يهرم ابن آدم, ويشب معه اثنتان: الأمل, وحب المال)

ولما كانت هذه جبلة للآدمي مضلة, غزيرة مهلكة, أثنى الله تعالى ورسوله على القناعة, فقال صلى الله عليه وسلم: (طوبى لمن هدي للإسلام, وكان عيشه كفافاً, وقنع به.) وقال عليه الصلاة والسلام: (ليس الغنى عن كثرة العرض, وإنما الغنى غنى النفس) ونهي عن شدة الحرص والمبالغة في الطلب, فقال: (أيها الناس أجملوا في الطلب, فإنه ليس لعبد إلا ما كتب له, ولن يذهب عبد من الدنيا حتى يأتيه ما كتب له من الدنيا, وهي راغمة)

وقال عمر رضي الله عنه: إن الطمع فقر, وإن اليأس غنى, وإنه من ييأس عما في أيدي الناس استغنى عنهم.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: ما من يوم إلا ملك ينادي: يا بن آدم, قليل يكفيك, خير من كثير يطغيك. وقال بعض الحكماء: وجدت أطول الناس غماً الحسود, وأهنأهم عيشاً القنوع.

علاج الحرص والطمع, والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أعمال: الصبر, والعلم, والعمل, ومجموع ذلك خمسة أمور:

الأول: وهو العمل, الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق, فمن أراد عز القناعة فينبغي أن...يرد نفسه إلا ما لا بد له منه, فمن...اتسع إنفاقه لم تمكنه القناعة.

الثاني: إذا تيسر له الحال ما يكفيه, فلا ينبغي أن يكون شديد الاضطراب لأجل المستقبل, ويعينه على ذلك قصر الأمل, والتحقق بأن الرزق الذي قدر له لا بد وأن يأتيه, وإن لم يشتد حرصه, فإن شدة الحرص ليست هي السبب لوصول الأرزاق, بل ينبغي أن يكون واثقاً بوعد الله تعالى, إذا قال عز وجل: (وما من دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها) [هود:٦]

الثالث: أن يعرف ما في القناعة من عز الاستغناء, وما في الحرص والطمع من الذل.

الرابع: أن يكثر تأمله في تنعم اليهود والنصارى, وأراذل الناس, ثم ينظر في أحوال الأنبياء, وإلى سمت الخلفاء الراشدين, وسائر الصحابة والتابعين, ويطالع أحوالهم, ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة أراذل الناس, أو على الاقتداء بمن هو أعز أصناف الخلق عند الله. حتى يهون بذلك عليه الصبر على الضنك والقناعة باليسير

الخامس: أن يفهم ما في جمع المال من الخطر, كما ذكرنا في آفات المال, وما فيه من خوف السرقة والنهب والضياع, وما في خلو اليد من الأمن والفراغ....ويتم ذلك بأن ينظر إلى من دونه في الدنيا لا إلى من فوقه, فإن الشيطان أبداً يصرف نظره في الدنيا إلى من فوقه, فيقول: لِمَ تفتر عن الطلب, وأرباب الأموال يتنعمون في المطاعم والملابس ؟ ويصرف نظره في الدين إلى من دونه.

فضيلة السخاء:

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة, وقلة الحرص. وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حالة الإيثار والسخاء, واصطناع المعروف, والتباعد عن الشح والبخل, فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام, قال أنس رضي الله عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يسأل على الإسلام شيئاً إلا أعطاه, وأتاه رجل فسأله, فأمر له بغنم كثير بين جبلين من غنم الصدقة, فرجع إلى قومه, فقال: يا قوم اسلموا, فإن محمد يعطى عطاء من لا يخاف الفاقة.

قال ابن السماك: عجبت لمن يشتري المماليك بماله, ولا يشتري الأحياء بمعروفه.

قيل للحسن البصري: ما السخاء ؟ قال: أن تجود بمالك في الله عز وجل.

وقيل لسفيان بن عيينه: ما السخاء ؟ قال: السخاء البر بالإخوان, والجود بالمال.

وقال: ورث أبي خمسين ألف درهم, فبعث بها صراراً إلى إخوانه, وقال: قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الجنة في صلاتي, أفأبخل عليهم بالمال ؟

وقال عبدالعزيز بن مروان: إذا الرجل أمكنني من نفسه, حتى أضع معروفي عنده, فيده عندي مثل يدي عنده.

عن أم درة _ وكانت تخدم عائشة رضي الله عنها _ قالت: إن معاوية بعث إليها بمال, ثمانين ومائة ألف درهم, فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس, فلما أمست قالت: يا جارية, هلم فطوري, فجاءتها بخبز وزيت, فقالت لها أم درة: ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه ؟ فقالت: لو كنت ذكرتني لفعلت.

قيل لبعض الحكماء: من أحبّ الناس إليك ؟ قال: من كثرت أياديه عندي

بيان ذم البخل:

قال الله تعالى: (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) [الحشر:٩] وقال تعالى: (ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) [آل عمران:١٨٠] وقال تعالى: (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) [النساء:٣٧]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من البخل, وأعوذ بك من الجبن, وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر) وقال عليه الصلاة والسلام: (شر ما في الرجل شح هالع, وجبن خالع)

وقال جبير بن مطعم: بينما نحن نسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم, إذ علقت برسول الله صلى الله عليه وسلم الأعراب يسألونه, حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه, فوقف صلى الله عليه وسلم: فقال: (أعطوني ردائي, فوالذي نفسي بيده, لو كان لي عدد هذه العصاة نعماً, لقسمته بينكم, ثم لا تجدوني بخيلاً, ولا كذاباً, ولا جباناً)

وقالت أم البنين أخت عمر بن عبدالعزيز: أف للبخيل, لو كان البخل قميصاً ما لبسته, ولو كان طريقاً ما سلكته.

وقال طلحة بن عبيدالله رضي الله عنهما: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء, لكننا نتصبر.

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله بقوم شراً, أمر الله عليهم شرارهم, وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وقال بشر: لقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين.

بيان الإيثار وفضله:

اعلم أن السخاء...ينقسم إلى درجات, فأرفع درجة السخاء: الإيثار, وهو أن يجود بماله مع الحاجة.

الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء, وليس بعد الإيثار درجة في السخاء, وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم, فقال: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:٩] وقد نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف, فلم يجد عند أهله شيئاً, فدخل عليه رجل من الأنصار, فذهب بالضيف إلى أهله, ثم وضع بين يديه الطعام, وأمر امرأته بإطفاء السراج, وجعل يمد يده إلى الطعام, كأنه يأكل ولا يأكل, حتى أكل الضيف, فلما أصبح, قال له النبي صلى الله عليه وسلم: (لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم) ونزلت: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:٩]

وقال عمر رضي الله عنه: أهدي إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة فقال: إن أخي كان أحوج مني إليه, فبعث به إليه, فلم يزل واحداً يبعث به إلى آخر, حتى تداوله سبعة أبيات, ورجع إلى الأول.

قال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لي, ومعي شيء من ماء, وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته, ومسحت به وجهه, فإذا أنا به, فقلت: أسقيك ؟ فأشار إلي أن نعم, فإذا رجل يقول: آه, فأشار ابن عمي إلي أن انطلق به إليه, فجئته فإذا هو هشام بن العاص, فقلت: أسقيك ؟ فسمع به آخر فقال: آه, فأشار هشام انطلق به إليه, فجئته فإذا هو قد مات, فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات, فرجعت إلى ابن عمي, فإذا هو قد مات, رحمة الله عليهم أجمعين.

علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه: حب المال, ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات, التي لا وصول إليها إلا بالمال, مع طول الأمل.

الثاني: أن يحب عين المال, فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره, إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته, وتفضل آلاف, وهو شيخ بلا ولد, ومعه أموال كثيرة, ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة, ولا بمداوة نفسه عند المرض, بل صار محباً للدنانير, عاشقاً لها, يلتذ بوجودها في يده, وبقدرته عليها, فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه تموت, فتضيع, أو يأخذها أعداؤه.

فهذه أسباب حب المال, وإنما علاج كل علة بمضادة سببها, فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير, وبالصبر, وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت, والنظر في موت الأقران, وطول تعبهم في جمع المال, وضياعه بعدهم, وتعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه, وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً, وحاله أحسن ممن ورث؟ وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده, يريد أن يترك ولده بخير, وينقلب هو إلى شر, وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه, وإن كان فاسقاً فسيستعين بماله على المعصية, ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل, ومدح السخاء, وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم.

ومن الأدوية النافعة: كثرة التأمل في أحوال البخلاء, ونفرة الطبع عنهم, واستقباحهم له, فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره, ويستثقل كل بخيل من أصحابه.

ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ؟ فلا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته, والباقي يدخره لنفسه في الآخرة, يحصل له ثواب بذله.

كتاب ذم الجاه والرياء

بيان ذم الشهرة وانتشار الصيت:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار, وهو مذموم, إلا من شهره الله تعالى لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه.

وقال لرجل لبشر بن الحارث: أوصني, فقال: أخمل ذكرك, وطيب مطعمك.

وقال بشر: ما أعرف رجلاً أحب أن يعرف إلا ذهب دينه وافتضح, وقال أيضاً: لا يجد حلاوة الآخرة رجل يحب أن يعرفه الناس.

بيان فضيلة الخمول:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (رب أشعث أغبر, ذي طمرين, لا يؤبه له, لو أقسم على الله لأبره.) وقال عليه الصلاة والسلام: (ألا أدلكم على أهل الجنة: كل ضعيف مستضعف, لو أقسم كل الله لأبره.)

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا ينابيع العلم, مصابيح الهدى, أحلاس البيوت, سرج الليل, جدد القلوب, تعرفون في أهل السماء, وتخفون في أهل الأرض.

وقال الفضيل: إن قدرت على أن لا تعرف فافعل, وما عليك أن لا تعرف, وما عليك أن لا يثنى عليك, وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس, إذا كنت محموداً عند الله تعالى ؟

اعلم أن المذموم طلب الشهرة, فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم.

ذم الجاه ومعناه:

قال الله تعالي: (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) [القصص:٨٣] جمع بين إرادة الفساد والعلو, وبين أن الدار الآخرة للخالي عن الإرادتين جميعاً, وقال عز وجل: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون) [هود:١٥_١٦] وهذا أيضاً متناول بعمومه لحب الجاه, فإنه أعظم لذة من لذات الحياة الدنيا, وأكثر زينة من زينتها.

معنى الجاه وحقيقته:

اعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا. ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها, ومعنى الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها.

علاج حب الجاه:

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق, مشغوفاً بالتودد إليهم, والمراءات لأجلهم, ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظم منزلته عندهم, وذلك أصل الفساد, ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات, وإلى اقتحام المحظورات.

فحب الجاه من المهلكات فيجب علاجه وإزالته عن القلب, ومن فهم الآخرة ...صغر الجاه من عينيه, إلا أن ذلك إنما يصغر في عين من ينظر إلى الآخرة, كأنه يشاهدها, ويستحقر العاجلة, ويكون الموت كالحاصل بين يديه,...ويتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه, فإن كل ذي جاه محسود, ومقصود بالإيذاء, وخائف على الدوام على جاهه, ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب.

العلاج لحب المدح:

اعلم أن أكثر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس, وحب مدحهم, فصارت حركاتهم كلها مواقفة على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوف الذم وذلك من المهلكات فيجب معالجته, وملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح.

فاستشعار الكمال بسبب قول المادح, فطريقتك فيه أن ترجع إلى عقلك, وتقول لنفسك: هذه الصفة التي يمدحك بها أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها, فهي إما صفة تستحق بها المدح, كالعلم والورع, وإما صفة لا تستحق المدح, كالثروة والجاه والأعراض الدنيوية, فإن كانت من الأعراض الدنيوية, فالفرح بها كالفرح بنبات الأرض, الذي يصير على القرب هشيماً تذروه الرياح, وهذا من قلة العقل.

وإن كانت الصفة مما يستحق الفرح بها كالعلم والورع, فينبغي أن لا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة... وخطر الخاتمة باق, ففي الخوف من سوء الخاتمة شغل عن الفرح بكل ما في الدنيا. ثم إن كنت تفرح بها على رجاء حسن الخاتمة, فينبغي أن يكون فرحك بفضل الله عليك بالعلم والتقوى, لا بمدح المادح.

وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها, ففرحك بالمدح غاية الجنون... فإذا أثنوا عليك بالصلاح والورع ففرحت به, والله مطلع على خبث باطنك, وغوائل سريرتك وأقذار صفاتك كان ذلك من غاية الجهل. فإذا المادح صدق فليكن فرحك بصفتك التي هي من فضل الله, وإن كذب فينبغي أن يغمك ذلك ولا تفرح به.

وآفة المدح على الممدوح عظيمة, قال بعض السلف: من فرح بمدح فقد مكن الشيطان من أن يدخل بطنه ومهما علم أن الأرزاق والآجال بيد الله تعالى قل التفاته إلى مدح الخلق وذمهم, وسقط من قلبه حب المدح واشتغل بما يهمه من أمر دينه.

علاج كراهة الذم:

القول الوجيز فيه أن من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون صادقاً فيما قال, وقصد به النصح والشفقة, وإما أن يكون صادقاً, ولكن قصده الإيذاء والتعنت, وإما أن يكون كاذباً.

فإن كان صادقاً وقصده النصح فلا ينبغي أن تذمه, أو تغضب عليه, وتحقد بسببه, بل ينبغي أن تتقلد منته, فإن من أهدى إليك عيوبك فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه فينبغي أن تفرح به, وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها وإن كان قصده التعنت, فأنت قد انتفعت بقوله إذ أرشدك إلى عيبك إن كنت جاهلاً به, وأذكرك عيبك إن كنت غافلاً عنه. وكل ذلك أسباب سعادتك, وقد استفدته منه, فاشتغل بطلب السعادة فقد أتيح لك أسبابها بسبب ما سمعته من المذمة.

وإما أن يفتري عليك بما أنت برئ منه عند الله تعالى, فينبغي أن لا تكره ذلك, ولا تشتغل بذمه, بل تتفكر في ثلاثة أمور:

أحدها: أنك إن خلوت من ذلك العيب, فلا تخلو من أمثاله وأشباه, وما ستره الله من عيوبك أكثر, فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك.

الثاني: أن ذلك كفارات لبقية مساويك, وذنوبك, فكأنه رماك بعيب أنت بريء منه وطهرك من ذنوب أنت ملوث بها, وكلّ من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته.

الثالث: أن المسكين قد جنى على دينه, حتى سقط من عين الله, وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم, فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه, فتشمت به الشيطان وتقول: اللهم اهلكه, بل تقول: اللهم أصلحه اللهم تب عليه

ذم الرياء:

الرياء حرام, والمرائي عند الله ممقوت, وقد شهدت لذلك الآيات, والأخبار, والآثار.

أما الآيات: فقوله تعالى: (فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون) [الماعون:٤-٦] وقوله عز وجل: (والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور) [فاطر:١٠] قال مجاهد: أهل الرياء.

وقال تعالى: (إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً) [الإنسان:٩] فمدح المخلصين بنفي كل إرادة سوى وجه الله, والرياء ضده. وقال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) [الكهف:١١٠] نزل ذلك فيمن يطلب الأجر والحمد بعباداته, وأعماله.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من راءى, راءى الله به, ومن سمع, سمع الله به.) وقال عليه الصلاة والسلام: (إن أخوف ما أخوف عليكم الشرك الأصغر) قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء) وقال صلى الله عليه وسلم: (يقول الله عز وجل: من عمل لي عملاً, أشرك فيه غيري, فهو له كله, وأنا برئ, وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك.) ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يطأطئ رقبته, فقال: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب

وقال علي رضي الله عنه: للمرائي علامات: يكسل إذا كان وحده, وينشط إذا كان في الناس, ويزيد في العمل إذا أثني عليه, وينقص إذا ذم.

حقيقة الرياء:

اعلم أن الرياء مشتق من الرؤية, والسمعة من السماع, وإنما الرياء أصله طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير. فحد الرياء هو إرادة العباد بطاعة الله.

دواء الرياء:

الرياء محبط للأعمال, وسبب للمقت عند الله تعالى, ومن كبائر المهلكات, وما هذا وصفه فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته, ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق.

وفي علاجه مقامان: أحدهما: قلع عروقه وأصوله, والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال

المقام الأول: في قلع عروقه واستئصال أصوله, وأصله حب المنزلة والجاه...فليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له, ونافع لذيذ, إما في الحال وإما في المآل, فإن علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه. كمن يعلم أن العسل لذيذ, ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه, كذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة. ومهما عرف العبد مضرة الرياء, وما يفوته من صلاح قلبه, وما يحرم عنه في الحال من التوفيق, وفي الآخرة من المنزلة عند الله, وما يتعرض له من العقاب العظيم, والمقت الشديد, والخزي الظاهر. فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة, وما يحبط من ثواب الأعمال,....هذا مع ما يتعرض له في الدنيا من تشتت الهمّ بسبب ملاحظة قلوب الخلق, فإن رضا الناس غاية لا تدرك, فكل ما يرضي به فريق يسخط به فريق, ورضا بعضهم في سخط بعضهم, ومن طلب رضاهم في سخط الله, سخط الله عليه, وأسخطهم أيضاً عليه, ثم أي غرض له في مدحهم, وإيثار ذم الله لأجل مدحهم ؟ ولا يزيده مدحهم رزقاً ولا أجلاً, ولا ينفعه يوم فقره وفاقته, وهو يوم القيامة.

فإذا تقرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها, فترت رغبته وأقبل على الله قلبه, فإن العاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه.

وأما الدواء العملي: فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات, وإغلاق الأبواب دونها, كما تغلق الأبواب دون الفواحش, حتى يقنع قلبه بعلم الله, واطلاعه على عبادته, ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به.

المقام الثاني: في دفع العارض منه أثناء العبادة, فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة, وقطع الطمع, واستحقر مدح المخلوقين, وذمهم, فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات, بل يعارضه بخطرات الرياء, فلا بد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء...فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفع ذلك بأن قال: مالك وللخلق علموا, أو لم يعلموا, والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد, ذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء, وتعرضه للمقت عند الله في القيامة, وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله.

الرخصة في قصد إظهار الطاعات:

اعلم أن في الأسرار للأعمال فائدة الإخلاص والنجاة من الرياء, وفي الإظهار فائدة الاقتداء, وترغيب الناس في الخير ولكن فيه آفة الرياء, ولكن في الإظهار فائدة, ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية, فقال: (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) [البقرة:٢٧١] والإظهار: قسمان.

القسم الأول: إظهار نفس العمل كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها, كما روى عن الأنصاري الذي جاء بالصرة, فتتابع الناس بالعطية لما رأوه, فقال عليه الصلاة والسلام: (من سن سنة حسنة فعُمل بها, كان له أجرها, وأجر من تبعه.)

القسم الثاني: أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ, وحكمه حكم إظهار العمل نفسه, والخطر في هذا أشدّ لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان, وقد تجرى في الحكاية زيادة

ترك الطاعات خوفاً من الرياء ودخول الآفات:

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به, وذلك غلط وموافقة للشيطان,...لأن الشيطان يدعوك إلى ترك العمل, فإذا لم تجب واشتغلت فيدعوك إلى الرياء, فإذا لم تجب ودفعت, بقي يقول لك: هذا العمل ليس بخالص, وأنت مراء وتعبك ضائع, فأي فائدة لك في عمل لا إخلاص فيه ؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل, فإذا تركته فقد حصّلت غرضه.

ومن هذا القبيل أن يترك العمل خوفاً من الناس أن يقولوا: إنه مراء فيعصون الله به. فهذا من مكايد الشيطان, لأنه أولاً أساء الظن بالمسلمين, وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك. ثم إن كان فلا يضره قولهم, ويفوته ثواب العبادة.

وترك العمل خوفاً من قولهم: إنه مراء هو عين الرياء, فلولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم, فماله ولقولهم قالوا: مراء, أو قالوا: إنه مخلص ؟ فهذه كلها من مكايد الشيطان على العباد الجهال ولا نجاة منه إلا بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء, وهو أنه ضرر في الآخرة, ولا نفع فيه في الدنيا, ليلزم الكراهة والإباء قلبك, وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي, وترك العمل لأجل ذلك يجرّ إلى البطالة, وترك الخيرات, فما دمت تجد باعثاً دينياً على العمل فلا تترك العمل, وجاهد خاطر الرياء, وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين, وهو مطلع على قلبك, ولو اطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك, بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك فافعل.

فإن قال لك الشيطان: أنت مراء, فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهة الرياء وإبائه, وخوفك منه, وحيائك من الله تعالى.

كتاب ذم الكبر والعجب

بيان ذم الكبر:

لقد ذم الله الكبر في مواضع من كتابه, وذم كل جبار متكبر, فقال تعالى: (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) [الأعراف:١٤٦] وقال الله عز وجل (كذلك يطبع الله على كل قلبِ متكبرٍ جبارٍ) [غافر:٣٥] وقال تعالى: (واستفتحوا وخاب كل جبارٍ عنيدٍ) [إبراهيم:١٥] وقال تعالى: (إنه لا يحب المستكبرين) [النحل:٢٣] وقال تعالى: (لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً) [الفرقان:٢١] وقال تعالى: (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر:٦٠]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه حبة من خردل من كبر.) وقال عليه الصلاة والسلام: (يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي, والعظمة إزاري, فمن نازعني واحد منها, ألقيته في جهنم, ولا أبالي.) وقال صلى الله عليه وسلم: (تحاجت الجنة والنار, فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين, وقالت الجنة: مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وعجزتهم ؟ فقال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي, وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء, ولكل واحدة منكما ملؤها.)

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لا يحقرن أحداً من المسلمين, فإن صغير المسلمين عند الله كبير.

وقال الحسن: العجب من ابن آدم, يغسل الخراء بيده كل يوم مرة, أو مرتين, ثم يعارض جبار السماوات.

بيان فضيلة التواضع:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً, وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.)

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: وجدنا الكرم في التقوى, والغنى في اليقين, والشرف في التواضع.

وقالت عائشة رضي الله عنها: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادات, التواضع.

وقال يوسف بن أسباط: يجرى قليل الورع من كثير العمل, ويجزي قليل التواضع من كثير الاجتهاد.

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع, ما هو ؟ فقال: أن تخضع للحق, وتنقاد له, ولو سمعته من صبي قبلته, ولو سمعته من أجهل الناس قبلته.

وقال قتادة: من أعطى مالاً أو جمالاً أو ثياباً أو علماً, ثم لم يتواضع فيه, كان عليه وبالاً يوم القيامة.

وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا, فشكرها لله, وتواضع بها لله إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا.

وقال الحسن: أتدرون ما التواضع ؟ التواضع أن تخرج من منزلك, ولا تلقى مسلماً إلا رأيت له عليك فضلاً.

وقال زياد النميرى: الزاهد بغير تواضع, كالشجرة التي لا تثمر.

وقيل لعبدالملك بن مروان: أي الرجال أفضل ؟ قال: من تواضع على قدرة, وزهد عن رغبة, وترك النصرة عن قوة.

يقال: أرفع ما يكون المؤمن عند الله أوضع ما يكون عند نفسه.

بيان حقيقة الكبر وآفته:

الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر, فالباطن هو خُلق في النفس, والظاهر هو أعمال تصدر عن الخوارج. واسم الكبر بالخُلق أحق, وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق. والكبر يستدعي: متكبراً عليه, ومتكبر به, وبه ينفصل الكبر عن العجب, فإن العجب لا يستدعي غير المعجب, بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصور أن يكون معجباً, ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا أن يكون معه غيره, وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال.

بيان ما به التكبر:

اعلم أنه لا يتكبر إلا متى استعظم نفسه, ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال, وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي فالديني: العلم, والعمل والدنيوي: النسب, والجمال, والقوة, والمال, وكثرة الأنصار. فهذه سبعة أسباب:

الأول: العلم, فإن قلت: فما بال بعض الناس يزداد كبراً ؟ فلذلك سببين:

أحدهما: أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً, وليس علماً حقيقاً, وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه, ونفسه, وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر

السبب الثاني: أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخلة, ردئ النفس, سيء الأخلاق, فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه, وتزكية قلبه, فبقي خبيث الجوهر.

الثاني: العمل والعبادة, فهو يرى الناس هالكين, ويرى نفسه ناجياً, وهو الهالك تحقيقاً, قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس, فهو أهلكهم) لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله, مغتر بالله, آمن من مكره, غير خائف من سطوته.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب, فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب, وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً.

الرابع: التفاخر بالجمال, وذلك أكثر ما يجرى بين النساء.

الخامس: الكبر بالمال, فيستحقر الغني الفقير, ويتكبر عليه.

السادس: الكبر بالقوة, وشدة البطش, والتكبر به على أهل الضعف.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والعشرة والأقارب.

بيان البواعث على التكبر وأسبابه المهيجة له:

الكبر خلق باطن, وأما ما يظهر من الأخلاق والأفعال فهو ثمرة ونتيجة, والكبر الظاهر أسبابه ثلاثة: سبب في المُتكبر, وسبب في المتكبر عليه, وسبب فيما يتعلق بغيرهما, أما السبب الذي في المتكبر فهو: العجب, والذي يتعلق بالمتكبر عليه هو الحقد والحسد, والذي يتعلق بغيرهما هو: الرياء, فتصير الأسباب بهذا الاعتبار أربعة: العجب, والحقد, والحسد, والرياء.

أخلاق المتواضعين, ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر:

التكبر يظهر في شمائل الرجل: كصعر في وجهه ونظره شزراً, وفي أقواله, ويظهر في مشيته وتبختره, فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله, ومنهم من يتكبر في بعض:

فمنها: أن يحب قيام الناس له أو بين يديه, ومنها: أن يمشي معه غيره يمشي خلفه.

ومنها: أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه, إلا أن يجلس بين يديه,

ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته, ومنها: أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي صل الله عليه وسلم فينبغي أن يقتدي به, فما نقل من أحواله عليه الصلاة والسلام يجمع أخلاق المتواضعين.

بيان الطريق في معالجة الكبر, واكتساب التواضع:

الكبر من المهلكات, وفي معالجته مقامان:

المقام الأول: استئصال أصله وعلاجه علمي وعملي, ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما

أما العلمي: فهو أن يعرف نفسه, ويعرف ربه تعالى, ويكفيه ذلك في إزالة الكبر, فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه لا يليق به إلا التواضع, وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا لله, وأما معرفته نفسه فيكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله: (قتل الإنسان ما أكفره * من أي شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدره * ثم السبيل يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره) [عبس: ١٧_٢٢] فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان, وإلى آخر أمره, وإلى وسطه, فلينظر الإنسان إلى ذلك, ليفهم معنى هذه الآية, أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً, ثم خلقه الله من أرذل الأشياء, فمن كان هذا بدؤه, فمن أين له البطر, والكبرياء, والفخر ؟ ثم سلط عليه في دوام وجوده الأمراض الهائلة, والأسقام العظيمة, والآفات المختلفة, والطباع المتضادة, لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً, يشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه, لا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه, وبصره, وتفلج أعضاؤه, ويختلس عقله, ويختطف روحه, ويسلب جميع ما يهواه في دنياه, فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه, وأني يليق الكبر به لولا جهله ؟ فهذه أوسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: (ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره) [عبس: ١٧_٢٢] ومعناه أنه يسلب روحه, فيعود جماداً كما كان أول مرة, لا يبقي إلا شكل أعضائه ولا حس فيه ولا حركة, ثم يوضع في التراب, ثم تبلى أعضاؤه, ويأكل الدود أجزائه, فما لمن هذا حاله والتكبر؟

وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بالفعل, ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين. من أحوال الصالحين, ومن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المقام الثاني: فيما يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المذكورة, فنذكر طريق العلاج:

الأول: النسب, فمن يعتريه الكبر من جهة النسب, فليداوي قلبه بمعرفة أمرين:

أحدهما: أن هذا جهل, من حيث أنه تعزز بكمال غيره. فالمتكبر بالنسب إن كان خسيساً قي صفات ذاته, فمن أين يجبر خسته بكمال غيره ؟

الثاني: أن يعرف نسبه الحقيقي, فيعرف أباه وجده, فإن أباه القريب نطفة قذرة, وجده البعيد تراب, وقد عرفه الله تعالى نسبه, فقال: (الذي أحسن كل شيءٍ خلقه وبدأ خلق الإنسان من طينٍ * ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهينٍ) [السجدة:٧-٨]

السبب الثاني: التكبر بالجمال, ودواؤه أن ينظر في باطنه نظر العقلاء, ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال, فإنه وكل به الأقذار في جميع أجزائه.

السبب الثالث: التكبر بالقوة والأيدي, ويمنعه من ذلك أن يعلم أنه...لو توجع عرق واحد في يده, لصار أعجز من كل عاجز, وأذل من كل ذليل.

السبب الرابع والخامس: الغني وكثرة المال, وفي معناه كثرة الاتباع والانصار, وكل ذات تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان...وهذا أقبح أنواع التكبر...فالتفاخر به غاية الجهل, وكل ما ليس إليك فليس لك, بل إلى واهبه, إن أبقاه لك, وإن استرجعه زال عنك, وما أنت إلا عبد مملوك, لا تقدر على شيء, ومن عرف ذلك لا بد أن يزول كبره.

السبب السادس: الكبر بالعلم, وهو أعظم الآفات, وأبعدها عن قبول العلاج إلا بشدة شديدة, وجهد جهيد, لأن قدر العلم عظيم عند الله, عظيم عند الناس, ولن يقدر العالم على دفع الكبر إلا بمعرفة أمرين: أحدهما: أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم أكد, وأنه يحتمل من الجاهل ما لا يحتمل عشره من العالم, فإن من عصى الله تعالى عن معرفة وعلم فجنايته أفحش, فلا ينبغي أن يكون العالم عند نفسه أكبر من الصحابة رضوان الله عليهم, وقد كان بعضهم يقول: يا ليتني لم تلدني أمي, خوفاً من خطر العاقبة, ومهما أطال فكره في الخطر الذي هو بصدده زال بالكلية كبره.

الأمر الثاني: أن العالم يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل, وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً, وقد أحب الله منه أن يتواضع, وهذا يزيل التكبر عن قلبه.

السبب السابع: التكبر بالورع, والعبادة, وذلك أيضاً فتنة عظيمة على العباد, وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد, وهو أن يعلم أن من يتقدم عليه بالعلم لا ينبغي أن يتكبر عليه كيفما كان, لما عرفه من فضيلة العلم, وقد قال تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) [الزمر:٩] قال وهب بن منبه: ما تمّ عقل عبد حتى يكون فيه عشر خصال, فعد تسعة, حتى بلغ العاشر, فقال: العاشرة ! وما العاشرة ! بها شاد مجده, وبها علا ذكره, أن يرى الناس كلهم خيراً منه.

غاية الرياضة في خلق التواضع:

اعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق, له طرفان وواسطة, فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبراً, وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى مذلة, والوسط يسمى تواضعاً, والمحمود أن يتواضع من غير مذلة, فإن كلا طرفي الأمور ذميم, وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها, فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر, ومن يتأخر عنهم فهو متواضع.

بيان ذم العجب وآفاته:

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى, وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم, قال الله تعالى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً) [التوبة:٢٥] ذكر ذلك في معرض الإنكار, وقال عز وجل: (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا) [الحشر:٢] فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم, وقال تعالى: (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً) [الكهف:١٠٤] وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل, وقد يُعجب الإنسان بالعمل وهو مخطئ فيه, كما يعجب بعملٍ هو مُصيب فيه.

وقال ابن مسعود: الهلاك في اثنتين: القنوط, والعجب. وقال مطرف: لأن أبيت نائماً, وأصبح نادماً, أحبّ إليّ من أبيت قائماً, وأصبح معجباً

آفة العجب:

آفات العجب كثيرة فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحد أسبابه فيتولد من العجب الكبر, ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى. هذا مع العباد, وأما مع الله تعالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها, وما يتذكره فيستصغره, ولا يستعظمه, فلا يجتهد في تداركه, وتلافيه, وأما العبادات والأعمال فإنه يستعظمها, ويتبجح بها, ويمنّ على الله بفعلها, وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها, ثم إذا عجب بها عمي عن آفاتها. والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه. ويخرجه العجب أن يثني على نفسه يزكيها. وإن أعجب برأيه وعمله وعقله منع ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة, ومن السؤال, فيستبد بنفسه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه, وربما يعجب بالرأي الخطأ, ومن آفاته: أن يفتر عن السعي لظنه أنه قد استغنى.

بيان علاج العجب على الجملة:

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده, وعلة العجب الجهل المحض, فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل. فنقول: الورع, والتقوى, والعبادة, والعمل, الذي به يعجب...نعمة من الله عليه, من غير حق سبق له, ومن غير وسيلة يدلي بها, فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله, إذ أفاض عليه ما لا يستحق, وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة.

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه:

اعلم أن...ما به العجب ثمانية أقسام:

الأول: أن يعجب ببدنه في جماله, وهيئته, وصحته, وقوته, فيلتفت إلى جمال نفسه, وينسي أنه نعمة من الله تعالى, وهو بعرضة الزوال في كل حال. وعلاجه التفكر في أقذار باطنه, وفي أول أمره وفي آخره, وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة كيف تمزقت في التراب, وأنتنت في القبور, حتى استقذرتها الطباع.

الثاني: العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور, وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة, واستجهال الناس المخالفين له, ولرأيه, وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزق من العقل, ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس, ويجن بحيث يضحك منه! فلا يأمن أن يسلبه عقله إن أُعجب به ولم يقم بشكره وليستقصر عقله وعلمه, وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه, وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه, وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم, فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري, فإن القاصر العقل لا يعلم قصور عقله, فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه.

الثالث: البطش والقوة. كما حكى عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم (من أشد منّا قوةً) [فصلت:١٥] وعلاجه...أن يعلم أن حمّى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه.

الرابع: العجب بالنسب الشريف, كعجب الهاشمية, وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم, وظن أنه ملحق بهم فقد جهل. وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب, ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليتشرف بما شرفوا به.

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين, والعلم. وهذا غاية الجهل, وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم, وما جرى لهم من الظلم على عباد الله, والفساد في دين الله, وأنهم الممقوتون عند الله....فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله على سلامة دينهم, ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين.

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب, كما قال الكفار: (نحن أكثر أموالاً وأولاداً) [سبأ:٣٥] وعلاجه أن يتفكر في ضعفه, وضعفهم, وأن كلهم عبيد عجزة, لا يملكون لأنفسهم ضراً, ولا نفعاً.

السابع: العجب بالمال, كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال: (أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً) [الكهف:٣٤] وعلاجه أن يتفكر في آفات المال, وكثرة حقوقه, وعظيم غوائله, وإلى أن المال غاد ورائح, ولا أصل له.

الثامن: العجب بالرأي الخطأ, قال تعالى: (أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً) [فاطر:٨] وعلاجه أشد من علاج غيره, لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه, ولو عرفه لتركه, وإنما علاجه بالجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً, لا يغتر به.

كتاب ذم الغرور

بيان ذم الغرور وحقيقته:

اعلم أن قوله تعالى: (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) [لقمان:٣٣] وقوله تعالى: (ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني) [الحديد:١٤] كاف في ذم الغرور.

والغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى, ويميل إليه الطبع, عن شبة وخدعة من الشيطان, فمن اعتقد أنه على خير, إما في العاجل أو في الآجل عن شبهة فاسدة فهو مغرور وأكثر الناس مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم, واختلفت درجاتهم, حتى كان غرور بعضهم أشد من بعض وأشدها غرور الكفار, وغرور العصاة والفساق

غرور العصاة:

غرور العصاة من المؤمنين بقولهم: إن الله كريم, وإنا نرجو عفوه, واتكالهم على ذلك, وإهمالهم الأعمال, وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء, وظنهم أن الرجاء محمود في الدين, وأن نعمة الله واسعة.

فإن قلت: فأين مظنة الرجاء, وموضعه المحمود ؟ فاعلم أنه محمود في موضعين:

أحدهما: في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة, فقال له الشيطان: وأني تقبل توبتك, فيقنط من رحمة الله تعالى, فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء, ويتذكر قوله تعالى: (إن الله يغفر الذنوب جميعاً) [الزمر:٥٣] وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده, وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب, قال الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم * وأنيبوا إلى ربكم) [الزمر:٥٣_٥٤] أمرهم بالإنابة.

وقال تعالى: (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) [طه:٨٢] فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج, وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور.

الثاني: أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال, ويقتصر على الفرائض, فيرجي نفسه نعيم الله تعالى, وما وعد به الصالحين, حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة, فيقبل على الفضائل, ويتذكر قوله تعالى: (قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون) [المؤمنون:١_٢] إلى قوله (أولئك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون) [المؤمنون:٩_١٠] فالرجاء الأول: يقمع القنوط المانع من التوبة, والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط.

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان يبعثان على العمل, فما لا يبعث على العمل, فهو تمن وغرور, ورجاء كافة الخلق هو سبب فتورهم, وسبب إقبالهم على الدنيا, وسبب إعراضهم عن الله تعالى, وإهمالهم السعي للآخرة, فذلك غرور....وكان الناس في الاعصار الأول يواظبون على العبادات, ويؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون, يخافون على أنفسهم, وهم طول الليل والنهار في طاعة الله, يبالغون في التقوى, والحذر من الشبهات والشهوات, ويبكون على أنفسهم في الخلوات.

فهذه أمثلة الغرور بالله...ويقرب منه طوائف لهم طاعات ومعاص, إلا أن معاصيهم أكثر, وهم يتوقعون المغفرة, ويظنون أنهم تترجح كفة حسناتهم, مع أن ما في كفة السيئات أكثر, وهذا غاية الجهل, فترى الواحد يتصدق بدراهم معدودة من الحلال, ويكون ما يتناول من أموال المسلمين والشبهات أضعافه,...ومنهم من يظن أن طاعاته أكثر من معاصيه, لأنه لا يحاسب نفسه, ولا يتفقد معاصيه, كالذي يستغفر الله بلسانه مائة مرة, ثم يغتاب المسلمين ويمزق أعراضهم طول النهار من غير حصر

أصناف المغترين:

الصنف الأول: أهل العلم والمغترين منهم فرق:

ففرقة: أحكموا العلوم الشرعية, والعقلية, وتعمقوا فيها, واشتغلوا بها, وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي, وإلزامها الطاعات, واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان,...ولو نظروا بعين البصيرة علموا أن علم...معرفة الحلال والحرام, ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة, وكيفية علاجها, والفرار منها, علوم لا تراد إلا للعمل...ولكل علم يراد للعمل, فلا قيمة له دون العمل.

وفرقة أخرى: أحكموا العلم والعمل, فواظبوا على الطاعات الظاهرة, وتركوا المعاصي, إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله, من الكبر, والحسد, والرياء, وطلب الرياسة, وإرادة السوء للأقران والنظراء, وطلب الشهرة في العباد والبلاد. وربما لم يعرف بعضهم أن ذلك مذموم, فهو مكب عليها غير متحرز منها. فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم, ونسوا قوله صلى الله عليه وسلم: (إن لا ينظر إلى صوركم, ولا إلى أموالكم, وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.) فتعهدوا الأعمال, ولم يتعهدوا القلوب _ والقلب هو الأصل _ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم. ومغارس المعاصي هي الأخلاق الذميمة في القلب, فمن لا يطهر القلب منها لا تتم له الطاعات الظاهرة إلا مع الآفات الكثيرة.

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع, إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها...ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة قالوا: ما هذا كبر, إنما هو إظهار شرف العلم ونصرة دين الله....ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والقناعة.

الصنف الثاني: أرباب العبادة والعلم والمغرورون منهم فرق:

فمنهم فرقة: أهملوا الفرائض, واشتغلوا بالفضائل والنوافل, وربما تعمقوا في الفضائل, حتى خرجوا إلى العدوان والسرف, كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء, فيبالغ فيه, ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع...وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة, ويخرجها عن وقتها, وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت, وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء, وإن لم يسرف فهو مغرور لتضيعه العمر الذي هو أعز الأشياء فيما له مندوحة عنه.

وفرقة أخرى: غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة, فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة, بل يشوش عليه حتى تفوته الجماعة, ويخرج الصلاة عن الوقت, وإن تم تكبيره فيكون في قلبه تردد قي صحة نيته, وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه.

وفرقة أخرى: تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة, وسائر الأذكار من مخارجها, فلا يزال يحتاط في التشديدات وتصحيح مخارج الحروف ذاهلاً عن معنى القرآن, والاتعاظ به, وهذا من أقبح أنواع الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بقراءة القرآن, فيهذونه هذاً, وربما ختموا في اليوم والليلة مرة, ولسان أحدهم يجري به, وقلبه يتردد في أودية الأماني, إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره, ويتعظ بمواعظه, ويقف عند أوامره ونواهيه.

وفرقة أخرى: اغتروا بالصوم, وربما صاموا الدهر, وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة, وبطونهم عن الحرام عند الإفطار, وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير, فيهمل الفرائض, ويطلب النفل, ثم لا يقوم بحقه, وذلك غاية الغرور.

وفرقة أخرى: اغتروا بالحج, فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم, وقضاء الديون, واسترضاء الوالدين, وطلب الزاد الحلال, وقد يفعلون ذلك بعد حجة الإسلام, ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض, ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام....ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق, وذميم الصفات.

وفرقة أخرى: أخذت في طريق الحسبة, والأمر بالمعروف, والنهي عن المنكر, ينكر على الناس, ويأمرهم بالخير, وينسى نفسه.

الصنف الثالث: أرباب الأموال, والمغترون منهم فرق:

ففرقة منهم: يحرصون على بناء المساجد...ويكتبون أساميهم...ليتخلد ذكرهم, ويبقى بعد الموت أثرهم, وقد اغتروا, وهم يظنون بأنفسهم الإخلاص وقصد الخير في الإنفاق, ولو كلف واحد منهم أن ينفق ديناراً, ولا يكتب اسمه على الموضع الذي أنفق عليه لشق عليه ذلك, ولم تسمح به نفسه.

وفرقة أخرى: يحرصون على بناء المساجد والمدارس والقناطر, وهم يبنونها من أموال اكتسبوها من الظلم, فهم قد تعرضوا لسخط الله في كسبها.

وفرقة أخرى: ربما اكتسبت المال من الحلال, وأنفقت في المساجد...وزخرفتها وتزينها بالنقوش التي هي منهي عنها, وشاغلة قلوب المصلين, ومختطفة أبصارهم,

وفرقة أخرى: ينفقون الأموال في الصدقات على الفقراء والمساكين, ويطلبون به المحافل الجامعة, ويكرهون التصدق في السر.

وفرقة أخرى: غلبهم على البخل, فلا تسمح أنفسهم إلا بأداء الزكاة فقط, ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذين يرغبون عنه.

الصنف الرابع: المتصوفة, وما أغلب الغرور عليهم, وهم فرق كثيرة

ففرقة منهم: اغتروا بالزي والهيئة والمنطق....ولم يتعبوا أنفسهم في مراقبة القلب, وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الجلية والخفية...بل يتكالبون على الحرام, والشبهات, وأموال السلاطين, ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة, ويتحاسدون على النقير والقطمير, ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه. وهؤلاء غرورهم ظاهر.

وفرقة أخرى: ادعت علم المعرفة...فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الإزراء, فضلاً عن العوام....ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء...ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق, وأنه من المقربين, وهو عند الله من الفجار المنافقين...لم يحكم علماً, ولم يهذب خلقاً, ولم يرتب عملاً, ولم يراقب قلباً, سوى اتباع الهوى, وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقة أخرى: وقعت في الاباحة, وطووا بساط الشرع, ورفضوا الأحكام, وسووا بين الحلال والحرام. فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي ؟ وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها, وإنما النظر إلى القلوب, وقلوبنا والهة بحب الله, واصلة إلى معرفة الله...ويزعمون أنهم ترقوا عن رتبة العوام...وكل ذلك أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها.

وفرقة أخرى: ادعوا حسن الخلق, والتواضع, والسماحة, واتخذوا ذلك للرياسة, وجمع المال, فهم يظهرون التواضع وغرضهم الارتفاع, ويظهرون الإرفاق وغرضهم الاستتباع, ثم إنهم يجمعون من الحرام, والشبهات, وينفقون ليكثر أتباعهم....وباعث جميعهم الرياء والسمعة.

علاج الغرور:

فإن قلت: فبم ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه...أن يعرف أربعة أمور: يعرف نفسه, ويعرف ربه, ويعرف الدنيا, ويعرف الآخرة...فإذا عرف ذلك...ثار في قلبه بمعرفة الله حب الله, وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها, وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها, ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى, وينفعه في الآخرة, وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها, واندفع عنه كل غرور منشؤه النزوع إلى الدنيا والجاه والمال, فإن ذلك هو المفسد للنية, وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة, وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور.

فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله, وبنفسه.....فيحتاج إلى...معرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله, والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه, والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله, فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها, وآفاتها فيتقيها, ويعرف أسرار المعايش, وما هو مضطر إليه فيأخذه بأدب الشرع, وما هو مستغن عنه فيعرض عنه, وأن يعلم جميع العقبات المانعة, فإن المانع من الله الصفات المذمومة في الخلق, فيعلم المذموم وطرق علاجه, ويعرف الصفات المحمودة, والتي لا بد وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد محوها, فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور, وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب, ويسقط حب الدنيا منه, حتى تقوى به الإرادة, وتصح به النية, ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها.

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق, وحسن الخاتمة, فإن الأمور بخواتيمها.

الربع الرابع: ربع المنجيات

كتاب التوبة

وجوب التوبة وفضلها:

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات, قال الله تعالى: (وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون) [النور:٣١] وهذا أمر على العموم, وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبةً نصوحاً) [التحريم:٨] ومعنى النصوح: الخالص لله تعالى, ويدل على فضل التوبة قوله تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة:٢٢٢] وقال عليه الصلاة والسلام: (التائب من الذنب كمن لا ذنب له) والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى, والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها.

ومن معناها: ترك المعاصي في الحال, والعزم على تركها في الاستقبال, وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال, وأما التندم على ما سبق فواجب, وهو روح التوبة.

وجوب التوبة على الفور:

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه, إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان, وهو واجب على الفور.

المعاصي للإيمان كالمأكولات المضرة للأبدان, فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا المنقضية يجب عليه ترك السموم, وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور, فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك,...فالبدار البدار إلى التوبة, قبل أن تعمل سموم الذنوب بروح الإيمان عملاً يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم, ولا ينفع بعده الاحتماء, فلا ينجح بعد ذلك نصح الناصحين, ووعظ الواعظين.

أقسام الذنوب:

تنحصر مثارات الذنوب في أربع صفات:

الأول: الصفات الربوبية, مثل الكبر, والفخر, وحب دوام البقاء وطلب الاستعلاء

الثانية: الصفة الشيطانية, ومنها يتشعب الحسد والبغي والمكر والخداع والغش والنفاق والدعوة إلى البدع والضلال والأمر بالفساد.

الثالثة: الصفة البهيمية, ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام

الرابعة: الصفة السبعية, ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلال الأموال.

وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة, فالصفة البهيمية هي التي تغلب أولاً, ثم تتلوها الصفة السبعية ثانياً, ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الخداع والمكر والحيلة, وهي الصفة الشيطانية, ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوبية....فهذه أمهات الذنوب ومنابعها, ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح.

قسمة ثانية: اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين العبد وبين الله تعالى, وإلى ما يتعلق بحقوق العباد. قسمة ثالثة: اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر.

ما تعظم به الصغائر من الذنوب:

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب:

منها: الإصرار والمواظبة, ولذلك قيل: لا صغيرة مع إصرار, ولا كبيرة مع استغفار.

ومنها: السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها, وكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة, وعظم أثرها في تسويد القلب, حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بمقارفته إياه.

ومنها: أن يستصغر الذنب, فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى, لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه, وكراهيته له. وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به, واستصغاره يصدر عن الألف به, وذلك يوجب شدة الأثر في القلب.

وقد جاء في الخبر: (المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه, يخاف أن يقع عليه, والمنافق يرى ذنبه كذباب مرّ على أنفه فأطاره.) وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله, فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة.

ومنها: أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه, وإمهاله إياه, ولا يدري أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً, فيظن أن تمكنه من المعاصي عناية من الله تعالى به, فيكون ذلك لأمنه من مكر الله.

ومنها: أن يكون المُذنب عالماً يقتدى به, فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه.

ومنها: أن يأتي الذنب ويظهره, بأن يذكره بعد إتيانه, أو يأتيه في مشهد غيره, فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سدله عليه, وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه, أو أشهده فعله, فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به, فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له, صارت الجناية رابعة, وتفاحش الأمر, وفي الخبر: (كل الناس معافى, إلا المجاهرين, يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه, فيصبح يكشف ستر الله, ويتحدث بذنبه.)

قال بعضهم: لا تذنب, فإن كان ولا بد, فلا ترغب غيرك فيه فتذنب ذنبين.

وقال بعض السلف: ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية, ثم يهونها عليه.

فطوبى لمن إذا مات, ماتت ذنوبه معه.

دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار:

لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء....ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة, ولا يضاد الغفلة إلا العلم, ولا يضاد الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة, والغفلة رأس الخطايا, فلا دواء إذن للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم, ومرارة الصبر.

الطريق الذي يسلكه الواعظ مع الخلق:

فإن قلت: فاذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق ؟ فاعلم أن ذلك يطول...ونشير إلى الأنواع النافعة في حل عقد الإصرار, وحمل الناس على ترك الذنوب, وهي أربعة أنواع:

الأول: أن يذكر ما في القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين, وكذلك ما ورد من الأخبار والآثار. والأخبار والآثار في ذم المعاصي ومدح التائبين لا تحصى.

الثاني: حكايات السلف الصالح وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم, فذلك شديد الوقع, ظاهر النفع في قلوب الخلق.

الثالث: أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب, وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جناياته.

والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره.

أما المطيع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته, ويوفق لشكرها, وكل بلية كفارة لذنوبه, وزيادة في درجاته.

الرابع: ذكر ما ورد من العقوبات على آحاد الذنوب, كالخمر والزنا والسرقة والقتل والغيبة والكبر والحسد.

كتاب الصبر والشكر

بيان فضيلة الصبر:

وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف, وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً, وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر, وجعلها ثمرة له, قال تعالى: (وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا) [السجدة:٢٤] وقال تعالى: (وتمت كلمت ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا) [الأعراف:١٣٧] وقال الله تعالى: (ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) [النحل:٩٦] وقال تعالى: (أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا) [القصص:٥٤] وقال الله تعالى: (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) [الزمر:١٠] فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب, إلا الصبر, ووعد الصابرين بأنه معهم, فقال الله تعالى: (واصبروا إن الله مع الصابرين) [الأنفال:٤٦] وعلق النصرة على الصبر, فقال تعالى: (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) [آل عمران:١٢٥] وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم, فقال تعالى: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) [البقرة:١٥٧]

أقسام الصبر:

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

أحدها: أن يقهر داعي الهوى, فلا تبقى له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر, وعند هذا يقال: من صبر ظفر, والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلون, فلا جرم هم الصديقون المقربون (الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) [فصلت:٣٠]

الحالة الثانية: أن تغلب دواعي الهوى, وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين, فيسلم نفسه إلى جند الشياطين,...وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون, وهم الذين استرقتهم شهواتهم, وغلبت عليهم شقوتهم.

الحالة الثالثة: أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين, فتارة له اليد عليها, وتارة لها عليه, وهذا من المجاهدين يعد مثله لا من الظافرين, وأهل هذه الحالة هم الذين (خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم) [التوبة:١٠٢]

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر, إلى ما يشق على النفس, فلا يمكن الدوام عليه, إلا بجهد جهيد, وتعب شديد, ويسمى ذلك تصبراً.

الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال:

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: إحداهما هو الذي يوافق هواه والآخر الذي لا يوافقه, وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما:

النوع الأول: ما يوافق هواه, وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة وجميع ملاذ الدنيا, وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور, فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة منها, أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان....ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم, قالوا: ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا, وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر.

فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية, ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها...ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب.

النوع الثاني: ما لا يوافق الهوى والطبع, وهو ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط باختياره, وهو أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية:

الضرب الأول: الطاعة, والعبد يحتاج إلى الصبر عليها, فالصبر على الطاعة شديد, ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته في ثلاث أحوال:

الأولى: قبل الطاعة, وذلك في تصحيح النية, والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء, ودواعي الآفات, وعقد العزم على الإخلاص والوفاء. الحالة الثانية: حالة العمل, كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله, ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه, ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير. الحالة الثالثة: بعد الفراغ من العمل, إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء.

الضرب الثاني: المعاصي, فما أحوج العبد إلى الصبر عنها, وأشد أنواع الصبر: الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة, فإذا انضافت العادة إلى الشهوة, تظاهر جندان من جنود الشيطان فلا يقوى باعث الدين على قمعها, ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله, كان الصبر عنه أثقل على النفس. كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً.

القسم الثاني: ما لا يرتبط هجومه باختياره, وله اختيار في دفعه, كما لو أذى بفعل, أو قول, وجُني عليه في نفسه, أو ماله, فالصبر على ذلك بترك المكافأة, قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى, قال تعالى (ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم:١٢]

وقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة مالاً, فقال بعض الأعراب من المسلمين: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله, فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم, فاحمرت وجنتاه, ثم قال: يرحم الله أخي موسى, لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر.)

فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر.

القسم الثالث: ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوله وآخره, كالمصائب مثل موت الأعزة, وهلاك الأموال, وزوال الصحة, وبالجملة سائر أنواع البلاء, فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر.

والصبر على بلاء الله بضاعة الصديقين, فإن ذلك شديد على النفس, ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أسألك من اليقين ما تهون علي به مصائب الدنيا) وقال داود لسليمان عليهما السلام: يستدل على تقوى المؤمن بثلاث: حسن التوكل فيما لم ينل, وحسن الرضى فيما قد نال, وحسن الصبر فيما فات.

واعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع, وشق الجيوب, وضرب الخدود, والمبالغة في الشكوى, وإظهار الكآبة, وتغير العادة في الملبس والمفرش والمطعم, وهذه الأمور داخله تحت اختياره, فينبغي أن يجتنب جميعها, ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى, ويبقى مستمراً على عادته, ويعتقد أن ذلك كان وديعة فاسترجعت.

وقد قيل إن الصبر الجميل: أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره, ولا يخرجه عن حمد الصابرين, توجع القلب, ولا فيضان العين بالدمع, فإن ذلك مقتضى البشرية, ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه, فقيل له: أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال: (إن هذه رحمة, وإنما يرحم الله من عباده الرحماء.) بل ذلك لا يخرج عن مقام الرضا.

فإذن مهما دفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين.

نعم من كمال الصبر: كتمان المرض, والفقر, وسائر المصائب. وقد قيل: من كنوز البر: كتمان المصائب, والأوجاع, والصدقة.

فقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال.

دواء الصبر وما يستعان به عليه:

اعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء, ووعد الشفاء, فالصبر وإن كان شاقاً أو ممتنعاً فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل. فالعلم والعمل هما الأخلاط التي منها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها.

والعبد إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع, وقد غلبت عليه الشهوة...فباعث الشهوة سبيل تضعيفه ثلاثة أمور:

أحدها: أن ينظر إلى مادة قوتها, وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة, فلا بد من قطعها بالصوم, مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة, إذا النظر يحرك القلب, والقلب يحرك الشهوة. وهذا يحصل بالاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصورة المشتهاة والفرار منها.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح, فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه.

وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر

وأما تقوية باعث الدين فإنما يكون بطريقين:

أحدهما: أن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناه في فضل الصبر, وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة.

الثاني: أن يعود مصارعة باعث الهوى تدريجاً, قليلاً, قليلاً.

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر.

بيان فضيلة الشكر:

اعلم أن الله قرن الشكر بالذكر في كتابه قال تعالى: (فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) [البقرة:١٥٢]وقال تعالى: (سنجزي الشاكرين) [آل عمران:١٤٥] وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر, فقال تعالى: (لئن شكرتم لأزيدنكم) [إبراهيم:٧]

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر)

حد الشكر وحقيقته:

الشكر ينتظم من علم وحال وعمل, فالعلم معرفة النعمة من المنعم, والحال الفرح الحاصل بإنعامه مع الخضوع والتواضع, والعمل القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه, ويتعلق ذلك العمل بالقلب, وبالجوارح, وباللسان. أما القلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق, وأما باللسان فإظهار الشكر لله بالتحميدات الدالة عليه, وأما الجوارح فاستعمال نعم الله في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته حتى أن من شكر العينين أن تستر كل عيب تراه لمسلم, وشكر الأذنيين أن تستر كل عيب تسمعه فيه.

السبب الصارف للخلق عن الشكر:

اعلم أنه لم يقتصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجهل والغفلة, فإنهم منعوا بالجهل والغفلة عن معرفة النعم, ولا يتصور شكرها إلا بعد معرفتها, ثم إنهم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول: بلسانه: الحمد لله, الشكر لله, ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة في طاعة الله. أما الغفلة عن النعم فالناس بجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق, ويسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة, فلا تراهم يشكرون الله على روح الهواء, ولو انقطع الهواء عنهم ماتوا.

كتاب الخوف والرجاء

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقربون إلى كل مقام محمود, ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود, فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان إلا أزمة الرجاء, ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الأليم, إلا سياط التخويف.

حقيقة الرجاء:

الرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده, ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب, فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه الصادق, وإن كان انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم الغرور والحمق عليه أصدق.

وقد عُلِمَ أن الدنيا مزرعة الآخرة, والقلب كالأرض, والإيمان كالبذر فيه, والطاعات جارية مجرى حفر الأنهار وسياقة المياه إليها, والقلب المستغرق بالدنيا كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر, ويوم القيامة يوم الحصاد, ولا يحصد أحد إلا ما زرع, ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان, وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء خلقه, كما لا ينمو بذر في أرض سبخة, فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع الذي طلب أرضاً طيبة, وألقى فيها بذراً جيداً, ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته, ثم نقى الشوك عن الأرض وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده, ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق, والآفات المفسدة, إلى أن يتم الزرع, ويبلغ غايته, سمى انتظاره رجاء

وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة, مرتفعة لا ينصب إليها الماء, ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً, ثم انتظر الحصاد منه, سمى انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء.

فالرجاء يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد.

بيان فضيلة الرجاء:

قال النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى) ودخل عليه الصلاة والسلام على رجل وهو في النزع, فقال: (كيف تجدك ؟) فقال: أجدني أخاف ذنوبي, وأرجو رحمة ربي. فقال صلى الله عليه وسلم: (ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله يرجوه, وآمنه مما يخاف.)

وقال صلى الله عليه وسلم: (إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن تنكره ؟ فإن لقنه الله حجته, قال: يا رب رجوتك, وخفت الناس. قال: فيقول الله تعالى: قد غفرته لك.)

وقال علي رضي الله عنه لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: يا هذا, يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك.

دواء الرجاء:

هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين: إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة, وإما رجل غلب عليه الخوف, فأضر بنفسه وأهله. فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب سموماً مهلكة في حقه ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس, أو فيمن غلب عليه الخوف, قال الله تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر:٥٣] وقال عز وجل: (وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) [الرعد:٦] وفي الخبر المشهور: (إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق: إن رحمتي تغلب غضبي.) وقال عليه الصلاة والسلام: (من لقى الله لا يشرك به شيئاً حرمت عليه النار.)

حقيقة الخوف:

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه, بسبب توقع مكروه في الاستقبال, فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه, وذلك الإحراق هو الخوف, فكذلك الخوف من الله تعالى, تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته, وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع, وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي, وتارة يكون بهما جميعاً, وبحسب معرفته بعيوب نفسه, ومعرفته بجلال الله تعالى, فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه, وكذلك قال صلى الله عليه وسلم: (أنا أخوفكم لله) وقال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر:٢٨] ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب, ثم يقيض أثر الحرقة من القلب على الجوارح, بكفها عن المعاصي, وتقيدها بالطاعات, ولذلك قيل: ليس الخائف من يبكى, ويمسح عينه, بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه.

قال أبو القاسم الحكيم: من خاف شيئاً هرب منه, ومن خاف الله هرب إليه.

فضيلة الخوف والترغيب فيه:

الخوف هو النار المحرقة للشهوات, فإن فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات, وبقدر ما يكف عن المعاصي, ويحث على الطاعات, وكيف لا يكون الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة, والورع, والتقوى, والمجاهدة, وهي الأعمال الفاضلة المحمودة التي تقرب إلى الله زلفى.

وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين: الهدى والرحمة والعلم والرضوان, وهي مجامع مقامات أهل الجنان, قال الله تعالى: (هُدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون) [الأعراف:١٥٤]

وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) [فاطر:٢٨] وصفهم بالعلم لخشيتهم وكل ما دل على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف, لأن الخوف ثمرة العلم.

وقال عز وجل: (وخافونِ إن كنتم مؤمنين) [آل عمران: ١٧٥] فأمر بالخوف وأوجبه, وشرطه في الإيمان, فلذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف, ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه.

قال الفضيل: من خاف الله دله الخوف على كل خير.

وقال يحيى بن معاذ: ما من مؤمن يعمل السيئة إلا ويلحقها حسنتان, خوف العقاب, ورجاء العفو.

وكان أبو الحسن الضرير يقول: علامة السعادة: خوف الشقاوة.

وقيل ليحيى بن معاذ: من آمن الخلق غداً ؟ فقال: أشدهم خوفاً اليوم.

وقال الحسن: إنك إن تخالط أقواماً يخوفونك حتى يدرك أمن, خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدرك الخوف.

وقال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلا خرب.

البكاء ثمرة الخشية, قال الله تعالى: (يبكون ويزيدهم خشوعاً) [الإسراء:١٠٩]

وقال صلى الله عليه وسلم: (سبعة يظلهم الله في ظله, يوم لا ظل إلا ظله) وذكر منهم: (رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه.)

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من استطاع أن يبكى فليبك, ومن لم يستطع فليتباك.

وكل ما ورد في فضل...البكاء, فهو دلالة على فضل الخوف, وأن جملة ذلك متعلقة به, إما تعلق السبب, أو تعلق المسبب.

بيان الأفضل غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما:

الخوف والرجاء دواءان يداوى بهما القلوب, ففضلهما بحسب الداء الموجود, فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى, والاغترار به فالخوف أفضل, وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل, وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل.

ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل....لأن المعاصي والاغترار على الخلق أغلب, بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة, فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل, وداعياً إلى الانهماك في المعاصي, فإن ذلك قنوط وليس بخوف, إنما الخوف هو الذي يحث على العمل, ويكدر جميع الشهوات فهو الخوف المحمود...أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء...فإنه يقوى قلبه, ويحبب إليه ربه, ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى.

أسباب سوء الخاتمة, والاستعداد لها:

لسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت, مثل: البدعة, والنفاق, والكبر, وجملة من الصفات المذمومة, ولذلك اشتد خوف الصحابة رضوات الله عليهم من النفاق.

فاشتغل بالاستعداد لها, فواظب على ذكر الله تعالى, وأخرج من قلبك حب الدنيا, واحترس عن فعل المعاصي بجوارحك, وعن الفكر فيها بقلبك, واحترز من مشاهدة المعاصي, ومشاهدة أهلها, جهدك, فإن ذلك يؤثر في قلبك, وإياك أن تسوف وتقول: سأستعد لها إذا جاءت الخاتمة, فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك, إذ يمكن أن تختطف فيه روحك, فراقب قلبك, وإياك أن تهمله لحظة, فلعل تلك اللحظة خاتمتك.

كتاب الفقر والزهد

فضيلة الفقر:

قال تعالى: (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) [الحشر:٨] وقال تعالى: (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض) [البقرة:٢٧٣] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يدخل فقراء أمتي قبل أغنيائها بخمسمائة عام.) وقال عليه الصلاة والسلام: (اطلعت على الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء.) وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق المرسلين, وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين.

آداب الفقير في فقره:

لا يكون فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر, ويكون متوكلاً على الله تعالى واثقاً به, وأن يظهر التعفف والتجمل, قال تعالى: (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) [البقرة:٢٧٣] وأن لا يفتر بسبب الفقر عن العبادة.

آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال:

ينبغي أن يلاحظ فيما جاءه ثلاثة أمور: المال, غرض المعطي, غرضه في الأخذ.

أما المال, فينبغي أن يكون خالياً من الشبهات فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذه.

أما غرض المعطي فلا يخلو أن يكون غرضه: الهدية, فلا بأس بقبولها, أو أن يكون للثواب وذلك صدقة أو زكاة, فعليه أن ينظر هل هو مستحق للزكاة ؟ أو أن يكون غرضه السمعة والرياء فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله, وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر: أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه, فإن كان محتاجاً فالأفضل له الأخذ.

بيان حقيقة الزهد:

الزهد....عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه...وكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا, وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهد ولكن في الآخرة, ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا.

فضيلة الزهد:

قال تعالى: (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى) [طه:١٣١] وقال تعالى: (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) [إبراهيم:٣] فوصف الكفار بذلك, فمفهومه أن المؤمن هو الذي يتصف بنقيضه, وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا.

قال بعض الصحابة لصدر من التابعين: أنتم أكثر أعمالاً واجتهاداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, وكانوا خيراً منكم. قيل: ولِم ذلك ؟ قال: كانوا أزهد في الدنيا منكم.

وقال عمر رضي الله عنه: الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد.

علامات الزهد:

ينبغي أن يعول على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود.

الثانية: أن يستوى عند ذامه ومادحه

الثالثة: أن يكون أنسه بالله تعالى, والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

قال أحمد بن حنبل وسفيان رحمهما الله: علامة الزاهد قصر الأمل.

وقال يحيى بن معاذ: علامة الزهد: السخاء بالموجود.

كتاب التوكل

فضيلة التوكل:

قال الله تعالى: (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) [المائدة:١٢٣] وقال عز وجل: (وعلى الله فليتوكل المتوكلون) [إبراهيم:١٢] وقال تعالى: (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) [الطلاق:٣] وقال سبحانه وتعالى: (إن الله يحب المتوكلين) [آل عمران:١٥٩] وأعظم بمقامٍ موسومٍ بمحبة الله تعال صاحبه, ومضمون كفاية الله تعالى مُلابسه, فمن الله تعالى حسبهُ وكافيه ومحبة ومراعيه, فقد فاز الفوز العظيم.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً, وتروح بطاناً.)

قال بعضهم: متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خيرٍ سبيلاً.

بيان حال التوكل:

قد يُظنُ أن معنى التوكل: ترك الكسب بالبدن, وترك التدبير بالقلب,...وهذا ظن الجهال, فإن ذلك حرام في الشرع,...فلو لم تزرع الأرض, وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتاً من غير بذر, أو تلد زوجتك من غير وقاع, فكل ذلك جنون.

والنبي صلى الله عليه وسلم وصف المتوكلين, فلم يصفهم بأنهم لا يكتسبون, ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئاً بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وقد ادخر عليه الصلاة والسلام لعياله قوت سنة فالمتوكل موحد قوي القلب مطمئن النفس إلى فضل الله واثق بتدبيره...وليس من شروط التوكل ترك الأسباب, والذي يسافر في البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً, ويكون سفره من غير استصحاب زاد, فهذا ليس شرطاً في التوكل, بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين.

كتاب محبة الله عز وجل

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض, ويدلّ على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل: (يحبهم ويحبونه) [المائدة:٥٤] وقوله تعالى: (والذين آمنوا أشد حباً لله) [البقرة:١٦٥] وهو دليل على إثبات الحب, وإثبات التفاوت فيه.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين.)

وقال عليه الصلاة والسلام في دعائه: (اللهم ارزقني حبك, وحب من أحبك, وحب ما يقربني إلى حبك.)

وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم, فقال: يا رسول متى الساعة ؟ قال: (ما أعددت لها ؟) فقال: ما أعدت لها كثرة صلاة, ولا صيام, إلا أني أحب الله ورسوله, فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : (المرء مع من أحب) قال أنس رضي الله عنه: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

قال الحسن: من عرف ربه أحبه, ومن عرف الدنيا زهد فيها.

الأسباب المقوية لمحبة الله تعالى, وتفاوت الناس في ذلك:

اعلم أن أسعد الخلق حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى, فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى, ودرك سعادة لقائه, وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن, لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة, وأما السبب....لقوة المحبة: فقوة معرفة الله تعالى.

واعلم أن المؤمنين مشتركون في أصل الحب لاشتراكهم في أصل المحبة, ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة, وفي حب الدنيا.

محبة الله تعالى للعبد:

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده, قال تعالى: (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً) [الصف:٤] وقال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) [البقرة:٢٢٢]

وقال عليه الصلاة والسلام: (قال الله تعالى: لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه, فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به, وبصره الذي يبصر به.)

علامات محبة العبد لله تعالى:

اعلم أن المحبة يدعيها كل أحد, وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى, والمحبة شجرة طيبة...ثمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح.

فمنها: حب لقاء الله تعالى, في دار السلام.

ومنها: أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى, على ما يحبه في ظاهره وباطنه, فيجتنب اتباع الهوى, ويعرض عن دعة الكسل, ولا يزال مواظباً على طاعة الله, ومتقرباً إليه بالنوافل, وطالباً عنده مزايا الدرجات,....وقد وصف الله تعالى المحبين بالإيثار, فقال: (يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) [الحشر:٩]

ومنها: أن يواظب على التهجد, ويغتنم هدء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق... فمن كان النوم والاشتغال بالحديث ألذ عنده, وأطيب من منجاة الله كيف تصحّ محبته ؟

ومنها: أن يكون مشتغلاً بذكر الله تعالى لا يفتر عنه لسانه, ولا يخلو عنه قلبه, فعلامة حب الله: حب ذكره.

ومنها: حب القرآن, قال ابن مسعود: لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا في القرآن, فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل.

ومنها: ألا يعصيه, فمن أحب الله لا يعصيه, ولذلك قال ابن المبارك:

تعصى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بـديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحـــب لمن يحب مطيع

قال سهل رحمه الله تعالى: ليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل صار حبيباً, وإنما الحبيب من اجتنب المناهي.

فإن قلت: فالعصيان هل يضاد المحبة ؟ فأقول: إنه يضاد كمالها, ولا يضاد أصلها.

ومنها: حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل ما ينسب إليه, قال عز وجل: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) [آل عمران: ٣١]

ومنها: أن يعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى, وطاعته.

ومنها: أن يتنعم بالطاعة, ولا يستثقلها, كما قال بعضهم: كابدت الليل عشرين سنة, ثم تنعمت به عشرين سنة.

ومنها: أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله, رحيماً بهم شديداً على جميع أعداء الله, كما قال تعالى: (أشداء على الكفار رحماء بينهم) [الفتح:٢٩] ولا تأخذه لومة لائم, ولا يصرفه عن الغضب لله صارف.

ومنها: أن يكون في حبه خائفاً, متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم.

وبالجملة جميع محاسن الدين, ومكارم الأخلاق ثمرة الحب.

كتاب النية والإخلاص والصدق

فضيلة النية:

قال الله تعالى: (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه) [الأنعام:٥٢] والمراد بتلك الإرادة هي النية.

وقال تعالى: (إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما) [النساء:٣٥] فجعل النية سبب التوفيق.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات, ولكل امرئ ما نوى, فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله, فهجرته إلى الله ورسوله, ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها, أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.)

وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم, وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)

وقال صلى الله عليه وسلم: (يبعث كل عبد على ما مات عليه)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أفضل الأعمال: أداء ما افترض الله, والورع عما حرم الله, وصدق النية فيما عند الله.

وكتب سالم بن عبدالله إلى عمر بن عبدالعزيز: اعلم أن عون الله للعبد على قدر النية, فمن تمت نيته تم عون الله له, ومن نقصت نقص بقدره.

وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي فقليله كثير, وما أريد به غيري فكثيره قليل. قال بعضهم: رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية

وقال الثوري: كانوا يتعلمون النية للعمل, كما تتعلمون العمل.

وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل, وما دمت تنوى الخير فأنت بخير.

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية:

الأعمال ثلاثة أقسام: معاص, وطاعات, ومباحات.

القسم الأول: المعاصي, وهي لا تتغير عن موضعها بالنية, كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره, أو يطعم فقيراً من مال غيره, أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام, وقصده الخير, فهذا كله جهل, والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات) يختص من الأقسام الثلاثة, بالطاعات والمباحات دون المعاصي, إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد, والمباح ينقلب معصية وطاعة بالقصد, فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد, نعم للنية دخل فيها, وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعف وزرها, وعظم وبالها.

القسم الثاني: الطاعات, وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها, وفي تضاعف فضلها أما الأصل: فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى لا غير, فإن نوى الرياء صارت معصية. وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة, فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة, فيكون له بكل نية ثواب, إذ كل واحدة منها حسنة, ثم تضاعف كل حسنة عشر أمثالها.

القسم الثالث: المباحات, وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات, يصير بها من محاسن القربات, وينال بها معالي الدرجات. فما أعظم خسران من يغفل عنها. والمباحات كثيرة, ولا يكمن إحصاء النيات فيها, ولهذا قال بعض السلف: إني أستحب أن يكون لي في كل شيء نية, حتى في أكلي, وشربي, ونومي, ودخولي إلى الخلاء.

فضيلة الإخلاص:

قال الله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) [البينة:٥] وقال سبحانه: (ألا لله الدين الخالص) [الزمر:٣] وقال عز وجل: (إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله) [النساء:١٤٦] وقال تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) [الكهف:١١٠] ولا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص, ولذلك كان معروف الكرخي يقول: يا نفس أخلصي تتخلصي. وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته, كما يكتم سيئاته. وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري: من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس.

ويقال: العلم بذر, والعمل زرع, وماؤه الإخلاص.

فضيلة الصدق:

قال الله تعالى: (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) [الأحزاب:٢٣] ويكفى في فضيلة الصدق, أن الله تعالى وصف به الأنبياء, في معرض المدح والثناء, فقال الله عز وجل: (واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً) [مريم:٤١] وقال تعالى: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً) [مريم:٥٤] وقال: (واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً) [مريم:٥٦] وقال عليه الصلاة والسلام: (إن الصدق يهدي إلى البر, والبر يهدي إلى الجنة, وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً, وإن الكذب يهدي إلى الفجور, والفجور يهدي إلى النار, وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً.)

قال ابن عباس: أربع من كن فيه فقد ربح: الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر.

مراتب الصدق:

الصدق الأول: صدق اللسان, وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه, فلا يتكلم إلا بالصدق, فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق.

الصدق الثاني: في النية والإرادة, ويرجع ذلك إلى الإخلاص, وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى, فإن مازجه شوب من حظوظ النفس, بطل صدق النية, وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً.

الصدق الثالث: صدق العزم, فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدقت.

الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم, فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال, إذ لا مشقة في الوعد والعزم, والمؤنة خفيفة, فإذا حقت الحقائق, وحصل التمكن, انحلت العزيمة قال مجاهد: رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا: إن رزقنا الله تعالى مالاً لنتصدقن فبخلوا به, فنزلت: (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) [التوبة:٧٥_٧٧] فجعل العزم عهداً, وجعل الخلف فيه كذباً, والوفاء به صدقاً. وهذا أشد من الثالث فإن الناس تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء.

الصدق الخامس: الصدق في الأعمال, وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به...ورب واقف على هيئة الخشوع في صلاته, ليس يقصد به مشاهدة غيره, ولكنه قلبه غافل عن الصلاة, فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله عز وجل, وهو بالباطن قائم في السوق بين يدى شهوة من شهواته.

كتاب المراقبة والمحاسبة

قال الله تعالى: (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) [الأنبياء:٤٧]

وقال تعالى: (ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً) [الكهف:٤٩]

وقال تعالى: (يوم يبعثهم الله جميعاً فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد) [المجادلة:٦]

وقال تعالى: (يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره) [الزلزلة:٦_٨]

وقال تعالى: (ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) [البقرة:٢٨١]

وقال تعالى: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه) [آل عمران:٣٠]

وقال تعالى: (واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه) [البقرة:٢٣٥] فعرف أباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد, وأنهم سيناقشون في الحساب, ويطالبون بمثاقيل الذرّ, وتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة, وصدق المراقبة, فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب, خفّ في القيامة حسابه, وحضر عند السؤال جوابه, وحسن منقلبه ومآدبه, ومن لم يحاسب نفسه, دامت حسرته, وطالت في عرصات القيامة وقفاته, وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته.

المراقبة:

قال الله تعالى: (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) [الرعد:٣٣] وقال تعالى: (ألم يعلم بأن الله يرى) [العلق:١٤] وقال تعالى: (إن الله كان عليكم رقيباً) [النساء:١] وقال تعالى: (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون) [المعارج:٣٢_٣٣]

وقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان, فقال: (أن تعبد الله كأنك تراه)

وقال عليه الصلاة والسلام: (اعبد الله كأنك تراه, فإن لم تكن تراه فإنه يراك.)

قال أبو عثمان: قال لي أبو حفص: إذا جلست للناس, فكن واعظاً لنفسك, وقلبك, ولا يغرنك اجتماعهم عليك, فإنهم يراقبون ظاهرك, والله رقيب على باطنك

وحكي عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها, فقالت له: ألا تستحيي ؟ فقال: ممن أستحيي وما يرانا إلا الكواكب ؟ قالت: فأين مكوكبها ؟

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر ؟ فقال: بعلمك أن نظر الله إليك, أسبق من نظرك إلى المنظور إليه.

وقال سفيان الثوري: عليك بالمراقبة ممن لا تخفي عليه خافية.

وقال السنجي: إن المنافق ينظر فإذا لم ير أحداً دخل مدخل السوء, وإنما يراقب الناس, ولا يراقب الله تعالى.

لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة, أو معصية, أو في مباح.

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال, ومراعاة الأدب, وحراستها من الآفات.

وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم, والإقلاع والحياء.

وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب, ثم بشهود المنعم في النعمة, وبالشكر عليها

محاسبة النفس بعد العمل:

قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغدٍ) [الحشر:١٨] وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال,

وقال تعالى: (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون) [الأعراف:٢٠١]

وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا, وزنوها قبل أن توزنوا.

وعن ميمون بن مهران: لا يكون العبد من المتقين, حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه.

رأس مال العبد في دينه: الفرائض, وربحه النوافل والفضائل, وخسرانه المعاصي. فيحاسب نفسه على الفرائض أولاً, فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليها, ورغبها في مثلها, وإن فوتها من أصلها طالبها القضاء, وإن أداها ناقصة كملها الجبران بالنوافل, وإن ارتكب معصية اشتغل بمعاتبتها, ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط, كما يصنع التاجر بشريكه.

ومهما حاسب نفسه فلن تسلم عن مقارفة معصية, وارتكاب تقصير في حق الله تعالى, فلا ينبغي أن يهملها, فإنه إن أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي, وأنست بها نفسه, وعسر عليه فطامها, وكان ذلك سبب هلاكها.

ومن أنفع العلاج أن تطلب صحبة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتقتدي به. أو تعدل إلى سماع أحوالهم, ومطالعة أخبارهم, وما كانوا فيه من الجهد. قال أبو الدرداء: لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً, الظمأ لله بالهواجر, والسجود لله في جوف الليل, ومجالس أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقى أطايب الثمر.

توبيخ النفس ومعاتبتها:

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك, وقد خُلقت أمارة بالسوء, ميالة إلى الشرّ, فرّارة من الخير, وأُمرت بتزكيتها, وتقويمها, وقودها بسلال القهر إلى عبادة ربها وخالقها, ومنعها من شهواتها, وفطامها عن لذاتها, فإن أهملتها جمحت وشردت, ولم تظفر بها بعد ذلك, وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة, كانت نفسك اللوامة التي أقسم الله بها, ورجوت أن تصير النفس المطمئنة, المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية, فلا تغفلن ساعتها عن تذكيرها, فتقول لها: يا نفس, أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار, وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟ فمالك تشتغلين باللهو, وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم, وعساك اليوم تختطفين أو غداً, فأراك ترين الموت بعيداً ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة ؟ وأن كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ؟ فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى: (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلةٍ معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدثٍ إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبهم) [الأنبياء:١_٣] ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك أو أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له, فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه, وشديد عقابه, أفتظنين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات, هيهات ! فمالك تسوفين العمل, والموت لك بالمرصاد, ولعله يختطفك من غير مهلة, فما المانع من المبادرة, وما الباعث لك على التسويف, هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك ؟ وليت شعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة, أو ألم النار في دركات جهنم ؟

كتاب التفكر

فضيلة التفكر:

أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى, وأثنى على المتفكرين, فقال تعالى: (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً) [آل عمران:١٩١]

وكان سفيان بن عيينة كثيراً ما يتمثل بقول القائل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عـبرة

وقال وهب بن منبه: ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم, وما علم امرؤ قط إلا عمل.

وقال عمر بن عبدالعزيز: الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة.

وعن ابن عباس قال: ركعتان مقتصدتان في تفكر خير من قيام ليلة بلا قلب.

قال أبو سليمان: الفكر في الآخرة يورث الحكمة ويحيى القلوب.

قال الشافعي: استعينوا على الكلام بالصمت, وعلى الاستنباط بالفكر.

التفكر في خلق الله تعالى:

الموجودات المخلوقة فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته, فالسماوات بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها والأرض بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها, وما بين السماء والأرض وهو الجو بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشهبها وعواصف رياحها, فهذه الأجناس المشاهدة كل جنس منها ينقسم إلى أنواع, وكل نوع ينقسم إلى أقسام, ويتشعب كل قسم إلى أصناف, ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه, وجميع ذلك مجال الفكر.

وقد ورد الحث على التفكر في هذه الآيات, كما قال تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) [آل عمران:١٩٠] وكما قال تعالى: (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) [الروم:٢٠]

فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة, وأقرب شيء إليك نفسك, وفيك من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى, ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيره وأنت غافل عنه. قال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون) [الذاريات:٢١]

ومن آياته: الأرض, فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً, وسلك فيها سبلاً فجاجاً, وجعلها ذلولاً لتمشوا في مناكبها, وجعلها قارة لا تتحرك, وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد, قال تعالى: (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها) [الملك:١٥] وقال عز وجل: (الذي جعل لكم الأرض فراشاً) [البقرة:٢٢] وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها, فظهرها مقر للأحياء, وبطنها مرقد للأموات, قال تعالى: (ألم نجعل الأرض كفاتاً * أحياءً وأمواتاً) [المرسلات:٢٥_٢٦]

ومن آياته: الجواهر المودعة تحت الجبال, والمعادن الحاصلة من الأرض, ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة.

فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب, والفضة, وغيرها, كالنحاس والحديد والرصاص, وكيف هدى الناس إلى استخراجها, وتنقيتها, واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها.

ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها. وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا لتطيب بعض الطعام, ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها.

ومن آياته: أصناف الحيوانات, وانقسامها إلى ما يطير, وإلى ما يمشي, وانقسام ما يمشي, إلى ما يمشي على رجلين, وإلى ما يمشي على أربع, وعلى عشر, وعلى مائة, كما يشاهد في بعض الحشرات, ثم انقسامها في المنافع, والصور والأشكال, والأخلاق والطباع. فانظر إلى طيور الجو, وإلى وحوش البر, والبهائم الأهلية, ترى فيها من العجائب, ولا تشك معه في عظمة خالقها, وقدرة مقدرها, وحكمة مصورها.

ومن آياته: البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض, حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض, بالإضافة إلى الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم, وبقية الأرض مستورة بالماء, وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها, فتأمل الآن عجائب البحر, فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض, كما أن سعته أضعاف سعة الأرض, وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس, أو طير, أو بقر, أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه, وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر, وقد ذكرت أوصافها في مجلدات, وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه.

ومن آياته: الهواء اللطيف, يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه, ولا يرى بعين شخصه, ثم انظر إلى عجاب الجو, وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق, فهي عجائب ما بين السماء والأرض, وقد أشار القرآن إلى جملة من ذلك: (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين) [الدخان:٣٨] فتأمل في خلق الله تعالى, فمن نظر في هذه الأمور...استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته, واهتدى به.

كتاب ذكر الموت وما بعده

الترغيب في الإكثار من ذكر الموت:

اعلم أن المنهك في الدنيا, المكب على غرورها, المحب لشواتها, يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره, وإذا ذُكر به كرهه, ونفر منه. قال الله: (قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) [الجمعة:٨]

وأما التائب: فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية, فيفي بتمام التوبة.

وفي ذكر الموت ثواب وفضل, فإن المنهمك يستفيد بذكر الموت, التجافي عن الدنيا, إذ ينغص عليه نعيمه, ويكدر عليه صفو لذته.

فضل ذكر الموت:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكثروا من ذكر هاذم اللذات) ومعناه: نغصوا بذكره اللذات, حتى ينقطع ركونكم إليها, فتقبلوا على الله تعالى.

ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور, ويتقاضى الاستعداد للآخرة, والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا.

قال الحسن: فضح الموت الدنيا فلم يترك لذي لب فرحاً.

وقال الربيع بن خثيم: ما غائب ينتظره المؤمن خيراً له من الموت.

وقال كعب: من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها.

قالت صفية رضي الله عنها: إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها, فقالت: أكثري من ذكر الموت يرق قلبك, فرق قلبها, فجاءت تشكر عائشة

بيان الطريق لذكر الموت:

اعلم أن الموت هائل, وخطره عظيم, وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكرهم فيه, ومن يذكره, ليس يذكره بقلب فارغ, بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا, فلا ينجع ذكر الموت في قلبه, وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذيم مضوا قبله, فيتذكر موتهم, ومصارعهم تحت التراب, ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم, ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم, وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم.

ومهما تذكر رجل رجلاً وفصل في قلبه حاله, وكيفية موته, وتذكر نشاطه, وتردده وتأمله للعيش والبقاء, ونسيانه للموت, وانخداعه بمواتاة الأسباب, وركونه إلى القوة والشباب, وميله إلى الضحك واللهو, وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع, والهلاك السريع. وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه, وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه, وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه في وقت إليه, حتى جاءه الموت في وقت لم يحتسبه, فانكشفت له صورة الملك, وقرع سمعه النداء, إما: الجنة, وإما: النار, فعند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم, وغفلته كغفلتهم, وستكون عاقبته كعاقبتهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: السعيد من وعظ بغيره.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إذا ذكرت الموتى فعد نفسك كأحدهم.

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها, مع دخول المقابر, ومشاهدة المرضى, هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب, بحيث يصير نصب عينيه.

ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا, ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقته نظر ابن مطيع إلى داره فأعجبه حسنها ثم وقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا. ثم بكى بكاء شديداً.

فضيلة قصر الأمل:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمر: إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء, وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح, وخذ من حياتك لموتك, ومن صحتك لسقمك.) قال معروف: نعوذ بالله من طول الأمل, فإنه يمنع من خير العمل

قال الثوري: الزهد في الدنيا: قصر الأمل.

قال عمر بن عبدالعزيز: إن لكل سفر زاداً لا محالة, فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى, ولا يطولن عليكم الأمد, فتقسوا قلوبكم.

كتب رجل إلى أخ له: إن الموت من الإنسان قريب, وللنقص في كل يوم منه نصيب, وللبلاء في جسمه دبيب, فبادر قبل أن تنادى بالرحيل, والسلام.

وقال عبدالله بن سميط: سمعت أبي يقول: أيها المغتر بطول صحته, أما رأيت ميتاً قط من غير سقم, أيها المغتر بطول المهلة, أما رأيت مأخوذاً قط من غير عدة, أبا الصحة تغترون ؟ أم بطول العافية تمرحون ؟ أم الموت تأمنون ؟

قال داود الطائي: من خاف الوعيد قصر عليه البعيد, ومن طال أمله ضعف عمله, وكل ما هو آت قريب.

السبب في طول الأمل وعلاجه:

له: سببان: الأول: حب الدنيا: فإنه إذا أنس بها وبشهواتها ثقل على قلبها مفارقتها, فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها.

الثاني: الجهل: فالإنسان يعول على شبابه, فيستبعد قرب الموت مع الشباب.

وعلاج الجهل: بسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة, وأما حب الدنيا فالعلاج بالإيمان باليوم الآخر, وبما فيه من عظيم العقاب, وجزيل الثواب.

المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمساً قبل خمس, شبابك قبل هرمك, وصحتك قبل سقمك, وغناك قبل فقرك, وفراغك قبل شغلك, وحياتك قبل موتك) وقال عليه الصلاة والسلام: (نعمتان مغبون فيها كثير من الناس: الصحة, والفراغ) أي: لا يغتنمهما, ثم يعرف قدرهما عند زوالهما.

وقال عمر رضي الله عنه: التؤدة في كل شيء خير, إلا في أعمال الخير للآخرة.

وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة, المبادرة, فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم.

سكرات الموت وشدته:

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها, لكان جديراً بأن يفارقه سهوه وغفلته, وحقيقاً بأن يطول فيه فكره, ويعظم له استعداده...وشدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها.

والنزع عبارة عن مؤلم نزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه, حتى لم يبق جزء من أجزاء الروح المنتشرة في أعماق البدن, إلا وقد حلّ به الألم, فلا تسل عن بدن يجذب من كل عرق من عروقه, ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجياً, ولكل عضو سكرة بعد سكرة, وكربة بعد كربة, حتى يبلغ بها الحلقوم....فلا تسأل عن طعم مرارة الموت, وكربه عند ترادف سكراته.

وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت, فجعل يدخل يده في الماء, ثم يمسح به وجهه, ويقول: (اللهم هوّن عليّ سكرات الموت.)

فهذه سكرات الموت على أولياء الله, فما حالنا ونحن المنهمكون في المعاصي.

في كلام المحتضرين:

لما حضرت معاوية بن سفيان الوفاة, قال: اللهم أقلّ العثرة, واغفر الزلة, وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك, ولم يثق بأحد سواك.

ولما حضرت بلالا الوفاة قالت امرأته: واحزناه, فقال: با واطرباه, غداً نلقى محمداً وحزبه. وقال المأمون: يا من لا يزول ملكه, ارحم من قد زال ملكه.

ولما حضرت إبراهيم النخعي الوفاة, فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: أنتظر من الله رسولاً, يبشرني بالجنة, أو بالنار. ولما حضرت عامر بن عبدالقيس الوفاة, بكى, فقيل له: ما يبكيك ؟ قال: ما أبكى جزعاً من الموت, ولا حرصاً على الدنيا, ولكن أبكى على ما يفتوني من ظمأ الهواجر, وعلى قيام الليل.

شهود الجنائز:

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير, وفيها تنبيه وتذكير, قال أسيد بن حضير: ما شهدت جنازة فحدثتني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به, وما هو صائر إليه.

وقال الأعمش: كنا نشهد الجنائز, فلا ندري من نعزي لحزن الجميع.

هكذا كان خوفهم عند الموت, والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون, ولا يتفكر واحد منهم, إلا ما شاء الله, في جنازة نفسه, وفي حاله إذا حمل عليها, ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلب, بكثرة المعاصي والذنوب. حتى نسينا الله تعالى, واليوم الآخر, والأهوال التي بين أيدينا, فصرنا نلهو, ونغفل, ونشتغل بما لا يعنينا, فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة, فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز. بكاؤهم على الميت, ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم, لا على الميت.

زيارة القبور, والاعتبار والاتعاظ بذلك:

زيارة القبور مستحبة, وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور, ثم أذن في ذلك بعد, قال عليه الصلاة والسلام: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور, فزورها.)

وكان عثمان بن عفان رضي الله عنه, إذا وقف على قبر بكى, فسئل عن ذلك, وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكى, وتبكى إذا وقفت على قبر ؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن القبر أول منازل الآخرة, فإن نجا منه صاحبه, فما بعده أيسر منه, وإن لم ينج فما بعده أشد.)

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على المقابر يقول: ما أحسن ظواهرك, إنما الدواهي في بواطنك.

وقال ميمون بن مهران: خرجت مع عمر بن عبدالعزيز إلى المقبرة, فلما نظر إلى القبور بكى, ثم أقبل عليّ, فقال: يا ميمون, هذه قبور آبائي بني أمية, كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا في لذاتهم وعيشهم, أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلات, واستحكم فيهم البلى, وأصابت الهوام أبدانهم, ثم بكى.

والبصير هو الذي ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم, فيستعد للحوق بهم, ويعلم أنهم لا يبرحون مكانهم ما لم يلحق بهم, وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذي هو مضيع له كان أحب إليهم من الدنيا بحذافيرها, لأنهم عرفوا قدر الأعمار, فإنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك المقصر به تقصيره, فيتخلص من العذاب, فإنهم عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه, فحسرتهم على ساعة من الحياة, وأنت قادر على تلك الساعة, ثم أنت مضيع لها.

أهوال يوم القيامة:

عرفت فيما سبق أحوال الميت في سكرات الموت, وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه, من نفخ الصور, والبعث يوم النشور, والعرض على الجبار, والسؤال عن القليل والكثير, ونصب الميزان. ثم جوز الصراط مع دقته وحدته, ثم انتظار النداء عند فصل القضاء إما بالإسعاد, وإما بالإشقاء. فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها, ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق, ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها, وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم, ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم, ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف, وبرد الشتاء, وتهاونهم بحرِّ جهنم, وزمهريرها, مع ما تكنفه من المصاعب والأهوال. بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر, نطقت به ألسنتهم, ثم غفلت عنه قلوبهم. فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار, وأكثر فيها التفكر والاعتبار, فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار.

تفكر أولاً فيما يقرع سمع سكان القبور من شدة نفخ الصور, فإنها صيحة واحدة, تنفرج بها القبور عن الموتى, فيثورون دفعة واحدة. قال تعالى: (ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) [الزمر:٦٨] فتفكر في الخلائق, وذلهم وانكسارهم, واستكانتهم عند الانبعاث خوفاً من هذه الصعقة, وانتظاراً لما يقضي عليهم من سعادة أو شقاوة, وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم, متحير كتحيرهم, بل إن كنت في الدنيا من المترفين, والأغنياء المتنعمين, فملوك الأرض في ذلك اليوم أذل أهل الأرض وأصغرهم وأحقرهم, فتفكر في حالك, وحال قلبك هنالك.

ثم انظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاةً عراةً, غرلاً إلى أرض المحشر, فسبحان من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أقطار الأرض.

ثم تفكر في ازدحام الخلائق في الموقف, فأشرقت عليهم الشمس, وقد تضاعف حرها, وأدنيت من رؤوس العالمين, تقف الخلائق شاخصة أبصارهم, منفطرة قلوبهم.

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه, المديد زمانه, القاهر سلطانه, القريب أوانه, يوم تخرس فيه الألسن, وتنطق الجوارح, يوم شيّب ذكره سيد المرسلين, إذ قال له الصديق رضي الله عنه: أراك قد شبت يا رسول الله, قال: (شيبتني هود وأخواتها) وهي: الواقعة, والمرسلات, وعم يتساءلون, وإذا الشمس كورت, فيأيها القارئ للقرآن لو كنت متفكراً فيما تقرؤه لكنت جديراً بأن تنشق مرارتك مما شاب منه شعر سيد المرسلين, وإذا قنعت بحركة اللسان فقد حرمت ثمرة القرآن, فالقيامة أحد ما ذكر فيها, وقد وصف الله بعض دواهيها, وأكثر من أساميها, لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها, فاحرص على معرفة معانيها.

فيا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم, حيث أغلقت الأبواب, وأرخيت الستور, واستترت عن الخلائق, فقارفت الفجور, فما تفعل, وقد شهدت عليك جوارحك ؟

فكيف ترى حياءك وخجلتك, وهو يعد عليك إنعامه, ومعاصيك, فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك, فنعوذ بالله من الافتضاح على ملأ الخلق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد المؤمن بأن يستر عليه, ولا يطلع عليه غيره.

ثم لا تغفل عن الفكر في الميزان, وتطاير الكتب إلى الأيمان والشمائل, واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان, إلا من حاسب في الدنيا نفسه, ووزن فيها بميزان الشرع أعماله, وأقواله.

قال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا, وزنوها قبل أن توزنوا.
وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحاً, ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله تعالى, ويرد المظالم حبة بعد حبة, ويستحل كل من تعرض له بلسانه, ويده, ويطيب قلوبهم حتى يموت, ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة.
فإن مات قبل ردّ المظالم, أحاط به خصماؤه, قال تعالى: (اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم) [غافر:١٧] فعند ذلك ينخلع قلبك, قال تعالى: (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء * وأنذر الناس) [إبراهيم:٤٢_٤٤] فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس, وتناول أموالهم! وما أشدّ حسراتك في ذلك اليوم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تدرون من المفلس) قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له, ولا دينار, ولا متاع.) قال: (المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة, ويأتي وقد شتم هذا, وقذف هذا, وأكل مال هذا, وسفك دم هذا, وضرب هذا, فيعطى هذا من حسناته, وهذا من حسناته, فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه, أخذ من خطاياهم فطرحت عليه, ثم طرح في النار.) فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم.
ثم تفكر بعد هذه الأهوال أن الناس يساقون إلى الصراط, قال تعالى: (فاهدوهم إلى صراط الجحيم * وقفوهم إنهم مسئولون) [الصافات:٢٣_٢٤] وهو جسر ممدود على متن النار, فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة, ونجا, ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا, وأثقل ظهره بالأوزار, وعصى, تعثر في أول قدم وتردى فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته

فهذه أهوال الصراط وعظائمه, فطول فيه فكرك, فإن أسلم الناس من أهوال يوم القيامة, من طال فيها فكره في الدنيا. فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد, فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا, أمنها في الآخرة, ولست أعنى بالخوف أن تدمع عينك, ويرق قلبك, حال السماع, ثم تنساه على القرب, وتعود إلى لهوك ولعبك, فما هذا من الخوف في شيء, بل من خاف شيئاً هرب منه, ومن رجا شيئاً طلبه. فلا ينجيك إلا خوفك يمنعك عن معاصي الله تعالى, ويحثك على طاعته.

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الفأل, فنختم الكتاب ببيان سعة رحمة الله, قال تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء:٤٨] وقال تعالى: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم) [الزمر:٥٣] وقال تعالى: (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) [النساء:١١٠]

ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم, ونستغفره من أقوالنا التي لا توافق أعمالنا, ونستغفره مما كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم غالطه غيره, ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها في معصيته.

ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك, أن نكرم بالمغفرة والرحمة, والتجاوز عن جميع السيئات, ظاهراً وباطناً, فإن الكريم عميم, والرحمة واسعة, والجود على أصناف الخلائق فائض. ونحن خلق من خلق الله عز وجل, لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه, فنرجو من الله تعالى, أن لا يعاملنا بما نستحقه, ويتفضل علينا بما هو أهله, بمنه وسعة جوده ورحمته.

ـــــ[١٧٧].

نصيحة

كتاب " إحياء علوم الدين " للإمام الغزالي, رحمه الله وعفا عنه, كتاب فيه فوائد, ولكنه فيه سموم, وشرور, وآفات, وأباطيل, أخطرها ما يتعلق بالعقيدة, فقد سلك طريقة الفلاسفة والمتكلمين في المباحث التي تناول فيها أمور العقيدة, وأظهرها في قوالب شرعية, مما يزيد خطورتها, قال العلامة عبداللطيف بن عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ رحمه الله في كتابه " القول المبين في التحذير من كتاب إحياء علوم الدين " : وقد سلك في الإحياء طريق الفلاسفة والمتكلمين, في كثير من مباحث الإلهيات وأصول الدين, وكسا الفلسفة لحاء الشريعة, حتى ظنها الأغمار, والجهال من دين الله, الذي جاءت به الرسل, ونزلت به الكتب, ودخل به الناس في الإسلام, وهي في الحقيقة محض فلسفة منتنة, يعرفها أولو الأبصار."

وإذا كان من له قدم في العلم قد تضرر بكلامه, فما الظن بمن هو دونه ؟ قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله عن الكتاب: وإنني ممن انتفع به كثيراً في بدايته, ولا أنكر أنني تضررت أيضاً لبعض أرائه.

فالذي تطمئن إليه النفس أن يقال في هذا الكتاب وأمثاله ما قاله الإمام الذهبي رحمه الله: فالحذر الحذر من هذه الكتب."

ولذا فإني أنصح بترك النظر في الكتاب, ولا يغتر الإنسان بنفسه فيظن أنه سيعرف ما فيه من سموم فيتجنبها, قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: اعلم أن في كتاب الإحياء آفاتٍ لا يعلمها إلا العلماء.

وفي كتب أهل العلم الربانين غنية عنه, قال الإمام الطرطوشي رحمه الله, بعد أن بين ما في كتابه من أضرار: " وفي دونه من الكتب غنية وكفاية لإخواننا المسلمين "

والحمد لله فالموضوعات التي ذكرها الإمام الغزالي رحمه الله, في كتابه في مجال تزكية النفس, وتهذيب الأخلاق, مبثوثة في كتب أهل العلم منهم: الإمام ابن حزم رحمه الله, في كتابه " مداواة النفوس وتهذيب الأخلاق والزهد في الرذائل"

والإمام ابن الجوزي رحمه الله, في كتبه التالية:

- تلبيس إبليس
- صيد الخاطر
- ذم الهوى

وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله, في كتابه " التحفة العراقية في الأعمال القلبية" والمطبوع في المجلد العاشر, من مجموع الفتاوى.

والعلامة ابن القيم رحمه الله, في كتبه التالية:

- إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان
- مدارج السالكين في منازل السائرين
- طريق الهجرتين وباب السعادتين
- حادي الأروح إلى بلاد الأفراح
- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب
- الداء والدواء
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين

والحافظ ابن رجب رحمه الله, في كتبه التالية:

- أهوال القبور, وأحوال أهلها
- التخويف من النار
- ذم قسوة القلب

فمن رجع إلى هذه الكتب, وجد فيها ما يزكي نفسه, ويهذب سلوكه, مع سلامتها من الأضرار الموجودة في كتاب " إحياء علوم الدين " للإمام الغزالي, أسأل الله الرحيم أن يتغمد الجميع برحمته, وأن يتجاوز عنا فيما وقعنا فيه, من خطأ أو زلل. وأن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه, وأن يرينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٣
الربع الأول: ربع العبادات	٥
كتاب العلم	٥
كتاب أسرار الطهارة	١٠
كتاب أسرار الصلاة	١١
كتاب أسرار الزكاة	١٢
كتاب أسرار الصوم	١٥
كتاب أسرار الحج	١٦
كتاب تلاوة القرآن	١٩
كتاب الأذكار والدعوات	٢٠
كتاب الأوراد وقيام الليل	٢٢
الربع الثاني: ربع العادات	٢٥
كتاب آداب الأكل	٢٥
كتاب آداب النكاح	٢٧
كتاب آداب الكسب والمعاش	٣٤
كتاب الحلال والحرام	٣٩
كتاب الأخوة والصحبة	٤٠

كتاب العزلة	٥٣
كتاب السفر	٥٥
كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر	٥٦
كتاب أخلاق النبوة	٥٨
الربع الثالث: ربع المهلكات	٦٠
كتاب القلب	٦٠
كتاب رياضة النفوس وتهذيب الأخلاق	٦٢
كتاب شهوة البطن	٧٠
كتاب آفات اللسان	٧٢
كتاب ذم الغضب والحقد والحسد	٨٧
كتاب ذم الدنيا	١٠٠
كتاب ذم البخل وحب المال	١٠٢
كتاب ذم الجاه والرياء	١١١
كتاب ذم العجب والكبر	١١٩
كتاب ذم الغرور	١٢٩
الربع الرابع: ربع المنجيات	١٣٦
كتاب التوبة	١٣٦
كتاب الصبر والشكر	١٤٠
كتاب الخوف والرجاء	١٤٦

كتاب الفقر والزهد	١٥١
كتاب التوكل	١٥٣
كتاب محبة الله عز وجل	١٥٤
كتاب النية والإخلاص والصدق	١٥٧
كتاب المراقبة والمحاسبة	١٦١
كتاب التفكر	١٦٥
كتاب الموت وما بعده	١٦٨
نصيحة	١٧٨
فهرس الموضوعات	١٨١